أيْ بُنيّ

مقارنة بين
ماضينا و حاضرنا

الجزء الخامس

عبدالعزيز بن عبد الله الخويطر

ⓒ عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر، ١٤١٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

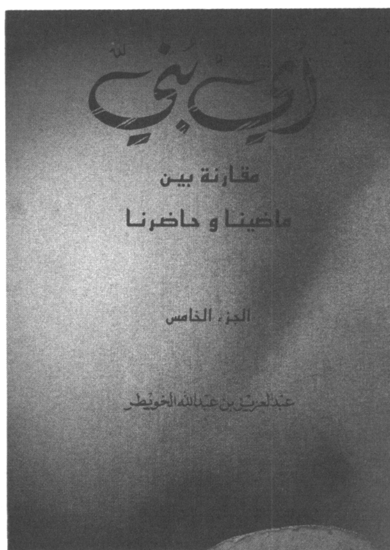
الخويطر ، عبدالعزيز بن عبدالله .
أي بني.. مقارنة بين ماضينا وحاضرنا .ـ الرياض.
٣٢٨ ص؛١٦ × ٢٣ سم (الجزء الخامس)
ردمك : ٦ – ٠ – ٩٠٤٨ – ٩٩٦٠
١– السعودية – العادات والتقاليد
٢– السعودية – المأثورات الشعبية.
٣– السعودية – الأدب الشعبي
أ– العنوان
ديوي ٣٩٠,٠٩٥٣١ ١٦/٢٣٢١

رقم الإيداع: ١٦/٢٣٢١
ردمك: ٦ – ٠ –٩٠٤٨– ٩٩٦٠

الرياض - الطبعة الثالثة
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

يطلب من مكتبة العبيكان
الرياض ـ العليا ـ طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة
ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥
هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم


أي بني
مقارنة بين
ماضينا و حاضرنا
الجزء الخامس
عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر



مقدمة

يسّر الله- سبحانه وتعالى- ومنّ بإكمال الجزء الخامس هذا من كتاب «أي بني»، فجاء حاملاً الرسالة التي حملتها الأجزاء الأربعة السابقة، محتفظاً بالفكرة والخطة، والمنهج المتبع فيها جميعاً، وإذا كان فيه اختلاف عنها فهو اقتصاره على التأكيد على ما حُمِد فيها، والتركيز على ما وُجِدَ مقبولا منها، واستيفاء جوانب عقد السلسلة بها، والتئام شملها بمتابعتها وتقصيها.

لقد احتوى هذا الجزء على ثلاثة أقسام: القسم الأول جاء في صور كانت موجودة منذ نصف قرن أو ثلثه، ثم اختفت كلية أو بهتت، أو تطورت إلى ما يناسب العصر، ففقدت جلّ مظهرها، ولم تحتفظ إلا بما تحتفظ به الديار من رسوم دوارس في عرصاتها وقيعانها، أصبحت تلوح- كما يقول الشاعر الجاهلي- كباقي الوشم في ظاهر اليد، ولكنها بقيت واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار في مخيلة

أبناء جيلها ، تستيقظ في مخيلتهم عند أدنى ذكر أو تذكّـر ، وعنـد أول منـاسبـة مما يجعل أبناء الجيل يتميّـزون عن الجيـل التـالي بأن مايرونه يعرفون أصله ، ومنبته ، ويعرفون مراحل اختفائه وتطوره ، وهي ميـزة يريـد هذا الكتاب ألا يحرم هذا الجيل منها ؛ لأنها تعطيه فرصة للربط ، وإرجاع الأمور إلى أسسها ، ومعرفة تاريخها ، ومايكمن خلف مابقي منهـا . والمرء مغرم باستدعاء الذكريات ، وله بهذا التذاذ ، وفيه إليه حنين ، وعنده به شغف .

والقسم الثاني - وله صلة وثيقة بالأول - قد جاء مركِّزاً على أمر واحد ، هو القضاء ، وكانت النية أن يقتصر على الصورة المبسّطة التي كان عليها في أول هذا القرن ، على أساس أن هذه الصورة اختفت باختفاء حياة الناس البسيطة ، ولكن ازدهار روض هذا المـوضـوع أغـرى بالتـوسـع ، ومقـارنة هذه البساطة ببساطة الأمر في أيام الرسول - ﷺ - وفي أيـام الصحـابـة - رضوان الله عليهم أجمعين - ثم مقارنة ماطرأ على الناس اليوم ، واتساع المجتمع ،



وتشعب الاتصال والاختلاط ، بما حدث عندما انداحت رقعة المملكة الإسلامية في زمن الخلفاء الأمويين والعباسيين ، مما تطلب تنظيم القضاء بما يتماشى مع التطور الكائن ، فأصبح لهذا التنظيم مظاهره من إيجاد أماكن للتقاضي ، ومساعدين للقضاة ، وسجلات ومرتبات ، وأنواع من الرّزق ، واحتاجت الأحوال إلى ذكاء يكشف الحيل ، ويقرّ الحقوق ، واقتضت الأمور حسن اختيار في التعيين ، والقبول والتأبّي والاجبار ، وقد تخلّل هذا كله من الطرائف التي يعرضها الكتاب ما يكشف عن كثير من الجوانب في شأن القضاء .

أما القسم الثالث فقد جاء مختلفاً وهو عن الشاهي والقهوة . ولم يبعد هذا الموضوع عن الهدف العام للكتاب ، فقد خاطب الناس عن طريق هذا العنوان في بعض الأمور التي تفيد الناشئ ، وتذكر في الوقت نفسه أبناء جيلنا . والحقيقة أن هذا الموضوع كان مكانَه الجزءُ الرابع ، إلا أن اكتمال صفحات ذلك الجزء أحاله إلى هذا الجزء الخامس



الذي نقدمه الآن بين يدى القرّاء .

هذه هي خريطة هذا الجزء ، وأرجو أن يجد مكانه إلى جانب الأجزاء الأخرى في مكتبات القارئين ، وأرجو - كما أملت في الماضي - أن تكون هذه السلسلة محرّكة لكُتّاب آخرين في مناطق أخرى في المملكة ، ليكتبوا في مثل مواضيعه ، وبما هو خير منه وأوفى ، وما هو إلا بداية طريق طويل لا تكمِّل تمهيده إلا الأيدى القادرة المتكاتفة .

وأسأل الله التوفيق والنفع ، إنه جواد كريم .

عبد العزيز بن عبد الله الخويطر



صور اختفت

أي بني!

أجل كانت هناك أمور بالأمس ملء السمع والبصر. كانت شغل الناس الشاغل، وكانت واجهة حياتهم، فأدالتها الأيام، وطوتها السنون، وكَرُّ الشهور، وأخنى عليها الزمن، ومحاها مرور الوقت، وتعاقبُ العصور والأجيال، واختلافُ الدّهور، وتغيُّرُ الأحوال، بإذن من وضع للكون نظاماً لا يختل، وترتيباً لاَ يهتزّ؛ يسير الكون بإرادته- سبحانه وتعالى- ويتحرك بقدرته- جل وعلا- ولم يبق من هذه الصور القديمة إلا رسم باهت، أو صدى ضعيف متقطع، أو اشعاع ضئيل، ذبالته أضعف من أن تنير طريقه إلى تصور الناس له تصوراً كاملاً، فبقي يلوح في مخيلة بعض من عاصر ذاك الزمن، أو في تصور من سمع عنه، وقد ضعف بضعف ذاكرة من بقي من أهله، أو قصور ذهن من صور له. وتراكمت على ما وجد

منه في الذاكرة صور جديدة طمسته طمساً تاماً ، أو حجبته بغلالة رقيقة ، أو حفرت فوق جوادّه القديمة طريقاً جديدة . وأصبح أغرب من الجمل في زمن السيَّارة والطيَّارة ، ومن بيت الطين عند العمارة والبناء الاسمنتي «المسلح» ، ومن الكتّاب أمام المدارس الحديثة .

في زمن مضى - يا بني - ليس ببعيد ، كان هناك منظر مألوف ، وصورة معروفة تكاد تكون جزءاً من حياة الناس اليومية : فعند صلوات الجماعة ، ترى رجلا أو غلاماً ، قد وقف عند باب المسجد ، يتصدّى للناس عند دخولهم للصلاة ، أو خروجهم منها ، وبيده إناء فيه ماء ، أو مجموعة من التّمر ، أو حزمة قت (برسيم) يرفع يده بأحد هذه الأشياء ، ليقرأ فيها المصلون أو عليها ، فبعضهم يقرأ بعض الآيات القرآنية ، ويتلو بعض الأدعية التي فيها طلب للشفاء ، واستنزال العافية ، ورفع المرض ؛ ينفث هذا نفثاً أو ينفخ نفخاً ، وبعضهم يجتهد في ألا يقصر ، فيرش بعض رذاذ من ريقه . ثم يؤخذ



هذا الماء بعد ذلك ، أو هذه التميرات ، أو حزمة القت ، حيث المريض : إنساناً كان أو حيواناً ، فالماء والتمر للإنسان ، والبرسيم للبقرة أو العنز ، والقراءة لأي مرض، خاصة إذا كان مجهول التشخيص، وفي الغالب يُعطى هذا للمريض مرضاً نفسياً ، أو حسب تعبير الناس في ذلك الزمن : يعطى للذي معه «ضِيقَةُ صدر» أو «وَحْشَة» . أما البرسيم فيعطى للبقرة أو للعنز إذا قل حليبها من غير سبب ظاهر ، أو ساء سلوكها فجأة ، فأصبحت «تصقل» حالبها ، أي تضربه برجلها ، ولم تكن تفعل ذلك من قبل ، فيجزم أصحابها أنّ عيناً قد أصابتها ولو عرفوا عائنها لهان الأمر ، ولكنهم لمّا لم يعرفوه لجؤا إلى القراءة ، وفيها الشفاء بإذن الله- تعالى- .

وأحياناً يظهر سوء سلوكها في أنها تصبح منّانة ، فلا تحلب إلا إذا وضع أمامها علف يكفي فترة الحلب كلها . وربما كانت منذ أول ولادة لها لا تحلب إلا إذا قدمت لها وجبة ، تلهيها عن

حالبها، وتتسبّب في إدرارها، وهذه الوجبة تسمى عندهم «الوقافة» ولا بد أن هذا الاسم قد جاء من مادة الـوقـوف، والإيقـاف، أي سكـون حركـة البقرة، وهدوء رجليها عن الرفس أو الأذى، حتى يتم حلبها.

والناس يتحدثون- يا بني- في إحدى المدن في نجـد عن «وقافة» مبتدعة طريفة، لجأ إليها أحد الأذكياء، ليتفادى ارتفاع النفقة على البقرة باطعامها في غير وقت اطعـامهـا برسيماً في كل حلبة، وهو علف غال مكلف، وليصـل الحالب إلى هدفه في تهدئتهـا أثنـاء الحلب بأرخص ثمن، عمـد هذا الـرجـل إلى كميـة جيـدة من التمـر، «فعبـطها» وعجنهـا، ثم خلط معهـا خيـوطـاً من الصـوف والشعر، وعَرَّضها للشمس، ثم أعاد عجنها، ثم أعـادهـا للشمس، وفعل هذا عدة مرات، حتى أصبحت في صلابتها كالحجر، ثم إنه كان يضعها أمـام البقرة عند حلبها، فيلهيها بها، فتبقى واقفة هادئـة، وهي تلحسهـا، حتى ينتهي الحـالب أو



الحالبة من حلبها، ثم يبعدها عنها ويحفظها، ويدخرها لوقت الحلبة التالية. وربما استمرت الاستفادة منها اثنتي عشرة سنة لهذه البقرة ولغيرها.

وقياساً على هذا الذكاء تروى عن هذا المفكر المخترع رواية قد تكون موضوعة، وليست حقيقة، ولكنها الآن تتداول لطرافتها: يقال إنه اشترى نظارة خضراء يلبسها البقرة عند حلبها، حتى تظن أن التبن الذي يوضح أمامها برسيم. ومع أن أثر الافتعال على هذه القصة ظاهر إلا أنها بقيت حية لطرافتها.

وهناك أمر - يا بني - يخص «الوقافة» يحسن أن تعرفه، لأنه رئيس في هذا المجال: إذا ولدت البقرة في البيت، فإن كان ما ولدته أنثى (عجلة) أبقوها، واعتنوا بها، وإن كان ذكراً (عجلا) سارع أصحاب البقرة إلى ذبحه، والاستفادة من لحمه، ومن لباء أمه، وهو حليب أول حلبة بعد الولادة، وله طعم خاص، وطريقة طبخ خاصة، إذا وضع على النّار وغلي أصبح ثخيناً متقطعاً يشبه ما يسمى

اليوم «الشكشوكة» ، وهي – كما تعرف – خلطة من البيض والطماطم ، تطبخ على نار هادئة حتى تتقطع .

ولكي يقلل أصحاب البقرة من ألم البقرة لفقدها ولدها ، فإنهم يسارعون بعد الولادة مباشرة إلى إبعاد ولدها عنها ، حتى لا «ترومه» فتتعلق به ، فتزعجهم بالخوار ، ولا تعطي لبنها طوعاً . ويعمد الناس إلى عمل «بوّ» من جلده ، يحشونه تبناً ، ويوقفونه أمامها عند حلبها ، فيقنعها منظرهُ هذا . ويمكن أن يعتبر «البوّ» على هذا «وقافة» .

ونعود – يا بني – مرة أخرى إلى الماء المقروء فيه ، أو البرسيم ، فنقول : إنه غالباً ما يكون أهل المريض ، أو أصحاب البقرة المريضة ، قد اعتقدوا أن هناك من أصاب مريضهم أو بقرتهم بالعين ؛ وأهل الحي معروفون ، وعددهم محدود ، وكلهم يصلي الفروض في المسجد ، فإذا ضمنوا أن كل واحد منهم قد نفث في الماء أو على البرسيم ، ضمنوا ارتفاع العين عن المريض بإذن الله . والكلمات التي



عادة يتلفظ بها القـارئون في الماء هي : «باسم الله الشافي ، باسم الله الكافي ، باسم الله المعافي» . وقد لاتكـون العـين هي ما يعتقـده أهـل المـريض في مريضهم ، فيكـون عملهم هذا رغبة منهم في أن تكون لإحدى هذه الدعوات المخلصة استجابة ، يبرأ على أثرها المريض .

وأذكـر - يا بني - فرحـة بعض الأولاد بالنافثين الـذين يطيلون القراءة ، ويكثرون الدعاء ، ليس فقط أمـلاً في الـدعـاء أن يستجاب ، ولكن أيضاً اعـترافاً بما أبدوه من عناية ، وما أعطوه من اعتبار لهذا الواقف ، والطفل ينقل يده بسرعة واقتدار من فم هذا إلى فم ذاك . بادئاً بأبعد الناس إليه ، حائلاً بين الأقـرب وبين المـرور ، وهو مثل المكـوك بين دفتي باب المسجد ، متخذاً منه مضيقاً يضمن عن طريقه أن لا يفوته أحد ، خاصة عند أول خروج المصلين من المسجـد ، وتـزاحمهم على الخـروج . ولا يَعْرف - يا بني - مدى هذا العناء إلا من جرّبه . ومن أَهم ما يشغل ذهن الصغير هو ألا يفوته أحد ،

خاصــة بعض النـاس الـذين يشـك فى أنهم من العائنين. والعائنون يعلمون هذا، ولهذا يتفادون النفث حتى لا تصـدق التّهمة عليْهم، أو يفعلون ذلـك مكـراً وكيداً وإغاظةً للصبي وأهله، فيصر الطفل على نفثهم في الماء، ويلاحقهم إلى منتصف الـشــارع، فلا يجدون بداً من الاستســلام، مع ابتسـامـة تكون إقراراً بانتصار الطفل، أو إقراراً بانتصار الرجل على الصبي، إذ استطاع المُطَارَد أن يُخرج الصبي من التستر الذي يُخفى به حرصه على هذا الرجل بعينه إلى مايبرهن أنه فعلاً حريص عليه.

وهنــاك- يا بني- أشخــاص فقـراء خيّرون، معروفون في الأحياء، بحبهم للمساعدة والعون، يكلفهم المحتـاج أن يقـوموا بمهمة أخذ الإناء أو الـبرسيم للمسجـد، والـوقـوف عنـد بابه لتلقف المصلين، وتـراهم دائـماً في هذا المسجد أو ذاك، يدهم ممدودة، ووجــوههم باسمــة. وإذا كلفهم الغني بهذه المهمّـة كافـأهم فيـما بعد عليها، وإن



كلفهم فقيرٌ احتسبوا الأجر عند الله ، وأكبر مكافأة لهم أن يروا المريض يشفى . ومكافأة الغني للفقير هذا تميرات معدودات ، أو وجبة مجزية ، أو قرص «كليجا»[1] للصغير أو «معمول»[2] أو جزء من خبزة تنور يطير بها من الفرح .

ولكن - يا بني - الفرحة الكبرى في نظر الصبي هي عندما ينهي مهمته ، ويعود إلى الشارع مع زملائه يلهو ويلعب ؛ لهذا فبعض الأطفال لا يتابع جميع المصلين ، ويكتفي بأن يُري نفسه واقفاً عند باب المسجد دقائق معدودات فلا يطيل ولا يستقصي ، ويده تدور بين الأفواه القريبة منه ، وعينه على الشارع ، وذهنه مع أقرانه واللعب المنتظر ، أو الذي فاته جزء منه . ويكفي أن الصلاة أخذت منه وقتاً لا بد من أخذه منه ، وإذا كان هذا الصبي لا يحرص عادة على أداء السنّة بعد الفرض ،

(١) نوع من البسكويت الوطني مصنوع من القمح والبيض والسمن وقليل من السكر ، مدور ومفرطح منقوش .

(٢) نوع من البسكويت الوطني مصنوع من القمح والسكر مطوي ، فيه طول .

فقد أخذ منه هذا الوعاء من الماء، أو هذه الحزمة من القت، ما لم يأخذه أداء السنّة من وقت.

على أن هذا الأمــر - يا بني - وهــو القــراءة في الإنــاء، لا يخلو من بعض الطرائف التي أصبحت تتناقل، ويتندر بها. يحكى أن أحد الرجال الذين ذهبوا من نجد، وهم صغار، وعاشوا فترة طويلة في البلقــاء في الشــام، رجع إلى مدينته في القصيم، ودخل وصلى في المسجد، وفي أحدى المرات، عند خروجه من المسجد، وجد صبياً يرفع أمام وجهه طويسة فيها ماء عذب نمير، وكان الوقت صيفاً، والجو حاراً، والرجل ظمآنا، فأخذ الطويسة، وعبّ ما فيها حتى الشمالة، «قرطوعاً» «قرطوعاً»، والطفل ينظر إليه مشدوهاً، حائراً لا يصدق عينيه.

وقصة أخرى قريبة من هذه، إلا أن ما أقدم عليه بطلها لم يكن بسبب جهله، ولكن الجوع حمله على ما فعل:

وقف صبي بيده قطعة من التمر المعجون،
يمد بها يده أمام كل خارج من المسجد بعد



الصلاة ، ليقرأ فيها ، واستمر الأمر يسير على هذا النحـو ، إلى أن أخـذ التمر رجل ممن رفعت له عجينته ، وظن الصبي أن الرجل سيقرأ فيها ، ولدهشته واستغرابه رآه يزدردها دفعة واحدة ، ويحمد الله ، ويدعو للمريض ، قبـل أن تتعدى اللقمة حلقه ، وتنحدر إلى معـدتـه ، لا تلوي على شيء ، حتى تستقر بها ، كأنّها صخـرة حطّهـا السيل من عل . وراحتْ فَرحـاً بها مُزْدَرِدُهـا ، آسفـاً عليها فَاقِدُها . ولَعل الطفل لَم يشعر بفقده التّمر بمثل شعوره بفقده الجهد الذي بذله في جمع القراءة عليها .

وأهـل الـطفل لا بد أنه اختلط عندهم شعور الأسى بشعور الفكاهة أمام هذا المنظر المفاجئ ، والحادث الذي جاء مخالفاً للعادة . على أي حالٍ بقي هذا الأمر يُتداول في المجالس باستطراف ، فترةً غير قصيرة ، وفي مثل هذا المجتمع الصغير تروج مثل هذه الأحـاديث ، ويطول تردادها ، وهذا الحدث

الطريف قد وصل إليّ في وقته ، واختزنته سنوات قد تصل إلى خمسين . وها أنذا - يا بني - أسلمك إياه . والله أعلم إلى متى سيبقى ، وكم من الناس سوف يسمعه بعد الآن . ولو كان هناك إحصاء للقراء لعرفنا منه مقدار دورته ، وسريانه ، وعدد قرائه . وقد ذكرني الإحصاء بالقصة الآتية :

قال الأصمعي ، والأصمعي - يا بني - صاحب أخبار طريفة ، لا أدري إذا كان فعلاً قد قالها لطرافتها ، أو أن مخترعها أراد أن يعلقها على مشجب مشهور حتى تنتشر وتعرف ، وما وجد أفضل من الأصمعي :

«رأيت رجلا قاعداً في زمن الطاعون ، يعد الموتى في كوز ، فعدّ في أول يوم عشرين ومئة ألف . وعد في اليوم التالي خمسين ألفاً ومئة ألف . فمرّ قوم بميتهم ، وهو يعد ، فلما رجعوا إذا عند الكوز غيره ، فسألوا عنه ، فقال : هو في الكوز» . (١)

---

(١) أخبار الظراف ١١٧ .



وقد مرت - يا بني - كلمة العين في أثناء كلامنا، والعين لها شأن كبير في مجتمعنا فلا تكاد تجلس في مجلس إلا وينعطف الحديث بسرعة فائقة إلى العين، وما تصيب به، ومن تصيب، وكيف تصيب، ومَنْ هم أشهر العائنين، وأسلوبهم في تسديد سهم العين وتصويبه. ولا يبقى شيء يمكن أن يقال في العين إلا قالوه، ويحلو للناس تكرار القول في هذا، وإعادته، والزيادة فيه في مجلس، والنقص منه في مجلس آخر، وهو مادة جاهزة معدة، تسعف الجالسين إذا لم يجدوا حديثاً يشغل وقتهم، ويُنقذهم من الصمت الممل، خاصة إذا كانوا في انتظار تقديم وجبة، أقيمت لتكريم قادم أو متزوج أو ناجح، أو لافتتاح منزل بُنِي حديثاً، أو سُكِنَ حديثاً.

وتسمع في هذا المجال - يا بني - عجباً، وتنصت إلى طرف منوعة، وقد سبق أن تحدثنا عن شيء من ذلك، ولا بأس في أن نتوسع بعض الشيء هنا في الحديث عن طرائف العين، والإصابة بها، مما يحلو للناس ترداده، ويلذ لهم قوله وسماعه. فهم يقولون

إن بعض النـاس تكـون نفسه حاقّة فهو لا يرضى للناس النعمة ، حتى لو كان هو رافلا فيها ، وهم يقولون إن العين لا تقتصر على الغني دون الفقير ، أو الفقير دون الغني . وهم يقولون إنها قد تتوارث ، وإنها قد تكون في الوارث أقوى منها في المورّث ، وبأنها قد تضعف عندما تنتقل من الأب إلى الابن . ويبعد أذى العين بأن يطلب من العائن أن يذكر الله فتخمـد جذوة العـين ، ويخبـو أوارهـا ، وتنطفئ نارهـا . وان لم يرد من أصابته العين ، أو أصابت شخصا عزيزا عليه ، أن يكشف للعائن شكه في أن سهام عينه أصابت مرماها وأن يطلعه على ما يجول بنفسه ، فإنه يأخذ من أثره شيئاً ، فيسقيه من أصابته العين ، أو يلبسه إياه ، أو يدهنه به . وهم يقولون أيضـاً إن العـائن يرتفـع أذى عينه ، وتبطل ملكة الإصابة بالعين عنده إذا صُلِّي عليه صلاة الميت وهو غافل ، كأن يكون نائماً ، والله أعلم بالحقيقة .

وهم يقولون أيضاً إن الشخص قد يصيب بعينه أعـز النـاس عليه ، لأن العين إذا تربربت داخل



الإنسان أصبحت كالمرجل تغلي ، ولا بد من التنفيس عنها بإرسالها إلى من أثارها ، ويروون قصصاً عجيبة ، وطريفة في هذا ، وهي تمثل شيئاً كثيراً من القصص الاجتماعي في بلادنا ، ولو جُمعت - يا بني - لكانت شيئاً ممتعاً للقارئ ، ولأظهرتْ مجرى تفكير سائد تدخل دراسته والغوص إلى أعماقه ، في صلب الدراسات الأدبية لمجتمعنا . ولعلك - يا بني - كما هي عادتك في استقبالك للقصص ، وتطلعك إليها مشتاق إلى شيء منها ، وسوف أطفئ ظمأك ، ولكني قبل أن أبدأ هذا أود أن أسجل أمنية في نفسي ، وهي أن أرى شعوبنا العربية تلتفت إلى مثل هذا التراث وتسجله ، ففيه ذخائر ، ولعل استقراء ما يجمع يوصل إلى جذور بعض ما نراه من الظواهر اليوم ، ونحن لا ندري عن أصوله شيئاً ، ولو درينا فقد نعدل من عاداتنا الجديدة ما يحتاج إلى تعديل ، ونوجهها وجهة أفضل مما هي عليه .

من القصص الطريفة التي تروى في مجال العين ، أو « النحاته » كما تسمى في بعض

بلدان نجد ، أو «النضل» كما تسمى في مناطق أخرى من نجد ، أو الحسد ، كما يعبر عنها في الحجاز ، قصة الفلاح الذي كان يعمل في حقله ، فلما تعب لجأ إلى ظل نخلة يستريح ، حتى يستعيد نشاطه ، وكان أمامه دجاجة معها فراخها ، فانقضت حدأة وخطفت الدجاجة وهو يرى ، فقال : عجيبٌ أخذت الحدأة الدلّة وتركت الفناجين . فلم تلبث الحدأة أن ضربت النّخلة ، ووقعت ميتة ، وسلمت الدجاجة .

«التوصيف» و «التمثيل» مهم - يا بني - للعين والعائن . الكلمات المعتادة قد لا تأتي بالتأثير السريع . وقد لا يكون من يأتي بالأمثال والتوصيف الدقيق عائناً ، ولكنه «مفطن» أو مذكر للعائن ومنبه له ، ولهذا إذا جاء وصف دقيق من شخص أياً كان قال له من حوله : «أذكر الله ، أو قل : لا إله إلا الله ، فإن لم تصب عينك ، فأنت تفطن العائن» .

نعود إلى قصة الدجاجة والحدأة ، إن ما يلفت



النظر فيها سرعة بديهة الرجل في التمثيل. قبل أن ترتفع الحدأة عن مستوى النخلة أرسل عليها الوصف كالرصاصة، فأركسها، وكأنه - يا بني - قد أعد هذا الوصف وهو جالس يستريح، حين نظر إلى الدجاجة وأفراخها، فشبهها في نفسه على الفور بالدلة والفناجين. ولعله وهو يفعل هذا قد أصاب الدجاجة أصلاً، لأن منظرها مع فراخها قد أحاك العين في نفسه، وأن العين هذه جلبت لها الحدأة. وبهذا نكون أمام إصابة بالعين مركبة. ويبدو أننا هنا شاركنا الناس في رأيهم في العين، ودخلنا حقل التفاصيل دون أن نقصد!

ومع أن العين - يا بني - من حيث هي، حق فإن الذي يوجب التوقف أحياناً هو التفاصيل التي قد تأتي عجيبة غريبة، فالناس مثلاً يقولون إن العائن لا يصيب عدوّه، أو من يظهر له العداء، وفي هذا إجابة على من يتساءل: لماذا لا يُؤتَى بالعائن إذا اجتمع جيشان ليصيب بعينه الجيش المعادي، «وكفى الله المؤمنين القتال». إن في عدم قدرة العائن



على الاضرار بالعدو ردّ على هذا المتسائل .

ومن القصص الطريفة أيضاً في هذا المجال مايروى من أن فلاناً العائن كان مسافراً من بلدة إلى أخرى فأصاب سيارته وأصحابه خلل ؛ فتوقف ، فمرت سيارة أخرى فأوقفوها ، وطلبوا ممن فيها المساعدة ، فبخل هؤلاء بها ، ولم يساعدوهم ، وبعد أن تحركوا بسيارتهم ، التفت العائن لمن معه ، وقال : إنهم لن يصلوا إلى تلك «العثامير» : (الشجيرات الصغيرة) ، ولكن هل تريدون مني أن أصيب العجلات كلها ، أو أصيب واحدة أو اثنتين ؟ وأي العجلات تريدون مني إصابتها؟ وقد أصاب فعلاً العجلة المختارة . وبقي المصابون بالعين في مكانهم لا يستطيعون عمل شيء إلى أن جاء الأسعاف فأصلحوا خلل سيارتهم أولاً ، ثم مروا بأولئك بعد سيرهم ، وشمتوا بهم .

ويقال إن الشخص قد يصيب بالعين أعز



الناس عليه، وأغلاهم عنده، ويروون في هذا أن رجلاً كان جالساً مع صديق له، والرجل من العائنين؛ فدخل ابن له، لم يره الصديق منذ مدة، ولاحظ الصديق أن الطفل قد نبتت ثناياه مكتملة، فأبدى تلك الملاحظة لصاحب البيت العائن، فقال العائن: هذه التي في المصباح غير التي في الخلوة، مشيراً إلى الدور الأرضي من المسجد وما فيه من صفوف الأعمدة، وإلى الخلوة وهي الطابق الذي تحت الأرض، فتعثر الطفل في عتبة الباب، وسقط، وسقطت ثناياه، وهو ابنه.

ويقال إن الشخص قد يصيب نفسه بالعين، ويروى في هذا أن رجلاً تسلق نخلة، وجلس على فرعها يقطف التمر، ويجني الثمرة، ولم يلبث أن جاء عصفور يزقزق على عادته كل يوم عندما يجوع، «لينقد» ويقطع جزءاً من التمرة، فالتفت



الـــرجـــل إليـــه ، وقـــال له : «ارجـــع فإن عصفـــورها فيها» . يعني نفسه ، فانكسر به العسيب ، وسقط هو نفسه إلى الأرض.

ولا تعـجب - يا بني - إذا قلت لك أن العـــين أحياناً يستفاد منها للاعزاز والإكرام ، ويروى :

أن رجلاً من علية القوم زار أحدى مدن الســاحل في المملكة ، فأقام له أميرها مأدبة غداء تليق به ، وبعـد الغـداء دعـاه أحـد أقـربـائـه إلى مأدبـة مماثلة في اليوم التالي ، فاعتذرٍ أنه سوف يسافر في صباح هذا اليوم منتهـزاً فرصـة برودة الجو في هذا الوقت ، وليقطع أيضاً في البحر مسافة مجزية في ضوء النهار ، قبل أن يدهمه الليل ، فأصر هذا على دعوته كما هي العادة عند الرغبة الشديدة في الاكرام ، فاعتذر المدعو ، فسكت الداعي ، وأسرّ لابنه أن يُعِدَّ العدة كاملة لدعوة الغذاء غداً ، وكأن الداعي قد قبلٍ الدعوة ، وانصاع الابن لرغبة والده مندهشاً غير مدرك مرمى



الأمـر . وفي صباح اليوم التالي ركب الزائر سفينته ، وأراد ربانها تشغيل مكينتها ، فلم تستجب ، وحـرنت حرون المصمم ، فلم يترك وسيلة إلا وجربها ، ومرّ الوقت سدى ، حتى جاء وقت الغداء ، فاضطر الزائر إلى الاستجابة للدعوة . وتحققت رغبة الداعي بالاكراه .

فلما انتهى الـزائـر والنـاس من الأكل ، واستعـدوا مرة أخـرى للمحاولة استجابت السفينـة لأول دعوة من ربانها ، مع دهشة المـودعـين كلهم . وعلم الأمـر من علمه ، وجهله من جهله ، ولكنها بقيت قصة تُروى إلى اليوم .

أرأيت - يا بني - كيف خدمت العـين ، فضيلة الكـرم ، وإن كانت أخّرت الرجل يوماً كاملاً عن الوصول إلى هدفه في الوقت الذي أراده .

والكلمات التي تستعمل - يا بني - رصاص يرسله

العائن إلى سيء الحظ، وهي كلمات تستحق الوقفة والالتفات، لأنها تكون في العادة مواكبة للحالة التي تصفها. يروى:

أن شخصاً مشى مع عائن في لندن مسافة طويلة، وعندما أبدى العائن ملاحظته على تحمل صاحبه السير هذه المسافة الطويلة دون أن يتعب، أراد الآخر أن يخفف من غلواء الملاحظة خوفاً من العين، وليبعد عن نفسه الإصابة بها، فكشف عن ساقه النحيلة، وأراها الرجل، ودافع عن نفسه بأن ساقه نحيفة ضعيفة لا ترقى إلى متانة ساق الثاني وقوتها. فقال العائن: «إن العفريتة، رافعة السيارات والآلات، نحيفة مثل ساقك، ومع هذا فهي تحمل سيارة كبيرة حمولتها عشرة أطنان». ومنذ ذلك اليوم وصاحب الرجل النحيلة يعاني آلاماً مبرحة، وأوجاعاً مقلقة في مفصل وركه من جراء هذه الملاحظة، ولا يسكت الألم، أو تخف



حدتـه ، وتهـدأ شرته إلا بالأدوية المسكنة . وراوى الخبر يرويه عن تجربة مرّ بها ، وهو من الـذين لا يرمـون الكلام على عواهنه ، وليس ممن يشك في أقوالهم .

ونحن لا نفـتأ نـرى ، بين آن وآخـر ، شخصاً يتحرك بهدوء دون أن يشعر به الناس ، فيأخذ نوى تمر أكله العـائن فيمصّـه ، دفعـاً لعـين شكّ أن الشخص العائن قد أرسل سهامها إليه ، عن طريق ملاحـظة أبـداهـا ، أو نظرات أحس أن فيها من الحسد ما أقلقه . وكم من امرأة احتالت على جارتها فأخـذت «طاقيـة» زوجهـا المعـروف بأنه عائن ، ووضعتها في ماء ، وأسقته زوجها هنيئاً مريئاً ! !

والعـين من قديم الـزمـان - يا بني - هي شغل النـاس الشـاغل ، في عصور الجاهلية والاسلام ، والأحاديث عنها تروى ، والقصص تقص ، وتتلون هذه القصص وتتطور تبعاً لحياة الناس في مجتمعاتهم المختلفة ، وليست العين وقفاً على المجتمع العربي ، ولكنها توجد أيضاً في كل مجتمع ، وتأخذ كل منها

مناحي شتى ، ولها فيه مظاهر مختلفة ، وقد اختفت العين في بعض هذه المجتمعات ، ولم يبق منها الا مظاهـر قد لا يعـرف أصحابها أنها إنما وضعت في الأســاس لما يطرد العـين أو يبعـدهـا ، ومن هذه المظاهر ما نراه عند بعض الشعوب من وضع نقطة سوداء أو حمراء فوق «مقرن» مابين العينين ، أو في وسط الجبهة .

لكي تعرف- يا بني - في نهاية حديثنا عن العين مبلغ خوف بعض الناس ووجلهم منها ، سأروي لك قصةَ رُقْيَةٍ رقي بها بعض من رأى أنها تقي بإذن الله من العـين ، أو تشفي من آثارها ، وفي كلماتها ما يدل على رهبة صاحبها وذعره من العين :

بينما أبو عبد الله البناجي في أسفاره ، إما حاجّا وإما غازياً على ناقة ، مرَّ في الطريق برجل عائن إذا نظر إلى شيء أتلفه وأسقطه ، وكـانت ناقة أبي عبد الله فارهةً ، فقيل له : «إحفـظها من العائن» ، فقال أبو عبد الله : «ليس له إلى ناقتي سبيـل» . فأُخـبر العائن



بقـوله ، فتخيرّ غيبة أبي عبد الله ، وجاء إلى رحله ، وعان ناقته ، فاضطربت وسقطت . فأُتيَ أبو عبد الله ، فقيل له : قد عان ناقتك ، هاأنت تراهـا تضطرب . قال دلّوني على العائن ، فَدُلَّ عليه ، فقال له : «باسم الله ، حبس حابس ، وحجـر يابس ، وشهـاب قابس ، رددت عين العـائن عليـه ، وعلى أحب النـاس عليه ، في كليتيه رشيق ، وفي مالـه يليق ، فارجـع البصر ، هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير» .[1]

فخـرجت حدقـة العائن ، وقامت الناقة لا بأس بها .

ها أنت قد رأيت - يا بني - هنـا قصة مروية ، ورقية متلوة ، والله أعلم بحقيقة الأمر ، ولعل هذه الرقية قد أفادت فعلاً ، لأنها من رجل صالح لجأ إلى

(١) ثمرات الأوراق : ٤٧٨ .



الله عز وجل فحماه ، ورد له بعيره ، وأخذ له حقه من غريمه جزاء وفاقاً .

على أي حال ، لقد كانت العين- كما تُروي القصة- عند السابقين شغلهم الشاغل ، وما زالت كذلك عند بعض الناس اليوم ، وإن ما حرك العين عندهم من قبل ما زال هو ما يحركها عندنا الآن وهو النعمة في جانب ، والحرمان في جانب آخر ، فالبعير في قصتنا السابقة كان فارها ، وفراهته هي التي حركت عليه العائن .

أي بني !

نعم ، صور كانت ملء السمع والبصر أمام الناس ، يرونها ليل نهار ، وهي جزء لا يتجزأ من حياتهم اليومية ، وقد اختفت مع زحف الحضارة والمدنية الحديثة ، ومع توافر الامكانات بما يتناسب مع التطور الذي طرأ على بلادنا ، بل على العالم أجمع ، نتيجة تغير الأحوال الاقتصادية ، وتقدم العلم ، وما جاء به من اختراعات حديثة ، وتقنية مذهلة .



أي بني !

لقد اختفى من مكة المكرمة مثلاً الكناسون الوطنيون الذين كنت تراهم بلباسهم الوطني، وهيئتهم المميزة : طاقية منشاة على رؤوسهم، مثل غيرهم من سكان مكة المكرمة، تحيط بها، في الغالب، عمامة «غبانة» لفّت بطريقة مبسطة، وأديرت بطريقة عفوية، وحزام «غبانة» أيضاً، أدير حول وسط الشخص، ليسند بطنه وظهره بطريقة خاصة متعارف عليها، وليؤدِّي - إلى جانب المظهر - أغراضاً أخرى مفيدة، ففيه - من الأمام - حوصلة لحفظ النقود وما إليها. وكان ابن البلد يفاخر بطريقة شد الحزام واتقانه.

ولكل كنّاس أزقة معينة، أو شوارع محددة، يقمّها ويكنسها، وبعد ذلك يجمع ما يتجمع عند كل كناس يومياً، وتأتي عربات البلدية، تجرها الحمير أو البغال، لتنقل ما يجمعه الكناسون إلى مكان معين خارج مكة - شرفها الله - يسمى : «قوز الكنّاسة» أو «قوز النكّاسة». أما سبب تسميته :

«قوز الكنّاسة» فواضح ، لأنه يصف تجمع القمامة فيه ، أما تسميته «بقوز النكاسة» فلعل «الكنس» يشير إلى قلب عربات الكنس رأساً على عقب في هذا المكان . لافراغ ما فيها .

وقد يكون أصله : «قوز المكّاسة» ، لأنه ورد في كتاب : «الدرر الفرائد المنظمة» للجزيري ، ما يشير إلى أن هناك مكانا ، خارج مكة اسمه : «قوز المكّاسة» ولعله كان في مكانِه ذلك مناسبا لأخذ المكوس على البضائع الداخلة إلى مكة من جدة ، ولهذا سمي بهذا الاسم .

قال الجزيري في حوادث عام (٦٥٢ هـ) :

«. . . فجاء مبارز الدين الحسين بن علي ابن برطاس ، في مئتي فارس ، من قبل المظفر - صاحب اليمن - فلقيه الاشراف بالسرجة من قوز المكّاسة ، خارج مكة ، فقتل جماعة من الاشراف ، ودخل ابن برطاس مكة ، وحج الناس» .[1]

---

(١) الدرر الفرائد ، ١/ ٥٩٩ .



أي بني !

لنقف هنا ، ونتدبر قصة قديمة تخص مكة ، والقمامة في مكة ، ونضعها قليلا تحت عدسة المجهر ، ونرى ما نقبله منها مما كان أصيلاً ، وما نرفضه مما كان دخيلاً ، وسترى أنها تستحق الوقفة ، لأنها أولا تدخل في نطاق حديثنا معنىً وجغرافيةً ، وثانياً لأن أبطالها رجال لهم قيمتهم في مجتمعهم ، ولأن ما أدخل فيها أمر يلمس السياسة ، والتطاحن حولها في ذلك الزمن ، وفوق كل هذا لأنها تخص جانباً من حزم عمر ، ومتابعته الأمور بنفسه :

حدث الاصمعي عن جويرية بن أسماء فقال :

إن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قدم مكة ، فجعل يجتاز في سككها ، فيقول لأهل المنازل : «قُمُّوا أفنيتكم» ، فمرّ بأبي سفيان ، فقال : «يا أبا سفيان ، قُمُّوا فناءكم» ، فقال : «نعم ، يا أمير المؤمنين ، يجيء مُهَّاننا» .

ثم إن عمر اجتاز بعد ذلك، فرأى الفناء كما كان، فقال: «يا أبا سفيان ألم آمرك أن تقموا فناءكم؟» قال: «بلى، يا أمير المؤمنين، ونحن نفعل إذا جاء مهاننا». فعلاه بالدرة بين أذنيه، فضربه. فسمعت هند، فقالت: «أتضربه؟! أما والله لَرُبَّ يوم لو ضربته لاقشعر بك بطن مكة». فقال عمر: «صدقت، ولكن الله- عز وجل- رفع بالإسلام أقواما، ووضع به آخرين».[1]

هذه القصة تريك أن أمر القمامة في مكة كان محط اهتمام أعلى سلطة فيها، وعمر قام بما يقوم به مفتش البلدية اليوم. وعمر كان لا يمنع نفسه عن أي عمل فيه صالح مجتمعه، فعينه مفتوحة طوال الوقت، فهو يعمل للدولة وهو يسير في طريقه إلى المسجد، وفي طريقه إلى البيت، وفي طريقه إلى السوق، لا يكل ولا يني، وهو يعس بالليل؛ نومه قليل، وسهره كثير، وعمله دائم- رضي الله عنه.

(١) المنتقى من أخبار الأصمعي ١٥١.



أما أن يمر فيجد قمامة متجمعة في فناء بيت أبي سفيان فأمر غير مستبعد ، وأن يعيد أمر أبي سفيان فأمر يمكن أن يحدث ، وأن يرد أبو سفيان بأن المتهنين سوف يؤمرون بقم الفناء ، فأمر مقبول أيضا . أما أن يعلو عمرُ أبا سفيان بالدرة لهذا السبب فأمر مفاجئ ، وأسباب العجب منه كثيرة . فعمر وأبو سفيان من عمد المجتمِع ، وعمر يعرف قدر أبي سفيان . وأبو سفيان بسنه ومقامه لا يتوقع أحد أن يعزّر بهذه الطريقة لهذا السبب البسيط . وأحسب أن أبا سفيان لو أتى أمراً جللا يخالف الشرع ، لحرص الخليفة عمر على أن يوقع الجزاء الذي يقضي به الشرع لا يزيد فيه ولا ينقص منه .

والقصة تبدو وكأنها تمثيلية لأناس مجتمعين على مسرح ، فعمر قائم وأبو سفيان أمامه ، ثم فجأة تظهر هند- وذكر هند يرد دائماً في مثل هذه القصص ، ولها فيها دور عجيب- فتُدافع وهي امرأة عن أبي سفيان وهو رجل ، وتقول للخليفة وهي امرأة ما لم يقله له أبو سفيان وهو رجل ، وهو أيضاً المعني

المهان المضروب . ويبدو أن المؤلف والمخرج قد نسيا كلية أبا سفيان عندما برزت هند على المسرح ، ونسيانهما له هو الذي أضعف في رأينا ما قالاه زيادة عن الخبر الأصلي الذي وقف عند الأمر بالقَمِّ دون الضرب ، وأبرز أيضاً احتمال الانتحال الذي ربما أريد به اضعاف حق الأمويين في الحكم ، باضعاف موقفهم أمام عمر في الإسلام بعد أن كان راجحاً في الجاهلية . ثم عمر لم يكن في الجاهلية ممن يخشى ضرب أبي سفيان ، وهو الذي دعا الرسول ﷺ أن يعزّ به الإسلام لعزته ومنعته . وهكذا اسدلت الستارة على مسرحية قد يكون أولها صحيحاً . وآخرها منحولاً .

أي بني !

دعنا نرجع إلى مكة المكرمة في زمن أبيك وجدك ، ونتحدث عن مظهر فيها ليس بعيداً عن موضوع الكناسين والقمامة ، وهو العربات التي كانت ترش الماء في الشوارع ، لتهدئ الغبار فيها ، فمكة المكرمة مثل غيرها من المدن لم يكن فيها في



زمن أبيـك وجـدك شوارع على الطراز الحديث، ولا أرصفة على جوانب الشوارع. ولعلك لا تدري أنه إلى ما بعد منتصف الستينات الهجرية بقليل لم يَعْـرف من لم يخرجـوا من المـمـلكـة شوارع «الاَسفلت»، ولم يروا متراً واحداً منها، اللهم إلا من ذهب إلى حي أرامكـو في المنـطقـة الشرقيـة. وكانت الشوارع في مدننا ترابية تقم منها القمامة، وكان لبعض شوارع هذه المدن حظ من رش الماء على قلته وغلائه.

وعربة الرش عبارة عن برميل كبير يوضع على هذه العـربـة التي تجرها البغال أو الحمير، ويقوم المكلف بها بفتـح الصنـابـير أو قفلهـا، ويـذهب ليمـلأهـا من آبار غير الآبار المخصصة للشرب، وكـانت تضفي بعض الـبرودة على شوارع مكة، وتلطف الجو، وتخفف درجة الحرارة الحارقة. هذا المنظر - يا بني - اختفى، ولم يعد يرى، فالمحيط كله تغير، ولو عاد لأصبح ملفتا للنظر بل منتقداً.



أي بني !

اختفى كذلـك من مكـة المكرمة- شرفها الله- ذلك الرجل الذي كانت الدولة تعيّنه وتعين كثيرين من أمثاله ، وهم الذين كانوا يدورون في الأحياء ، والحـارات ، ليشعلوا مصـابيـح وضعت في أماكن معينـة مختـارة لتنير هذه الأماكن ، وبعض الزوايا والمنحيات في الأزقة والشوارع والسكك . مما يساعد النـاس على السير ليلا . بدون ارتطام بجدار ، أو الوقوع في حفرة ، أو الاصطدام ببعض الحيوانات ؛ وما أكثر الأغنام- يا بني- في مكة في تلك الأيام ، وما أكثر الكلاب آنذاك ، فقد كان لا يخلو بيت قادر من غنمة أو غنمتين أو أكثر ، تجوب الشوارع نهاراً ، وقد تبيت فيها ليلا ، تراها هنا وهناك .

وهذه المصابيح ، أو الفوانيس ، تساعد الناس بنـورهـا على تفـادي اصـطدام بعضهم ببعض ، وتهديهم عموما في سيرهم في طريقهم ، وتهدئ من روعهم وتطمئنهم ، خاصة النساء والأطفال منهم ، الذين ألفوا سماع قصص الجن التي كانت تدور على



ألسنة الناس وهي من نسج خيالهم ، قد غالوا فيها ، حتى أصبحت احداها تكفي لتكون مصدراً للرعب ، ومن هذه القصص المرعبة القصة المتداولة عن «الدُّجِّيرة» ، وهي قصة يقف منها شعر رأس الطفل ، وترتعد فرائِصُه ، ويضطرب قلبه . و«الدجيرة» يُزْعَم أنها عجوز جنية ، على ظهرها «بقشة» تسير بها وهي محنية الظهر من الكبر بسبب سنها المتقدم ، وهي تدب دبيباً ، وهي امعانا في الحيلة ، وزيادة في الخداع ، إذا رأت شخصاً يسير وحيداً ، في أحد الأزقة الضيقة المظلمة ، طلبت منه ، بتعطفٍ وانكسار يوجب الشفقة ، ويستدر الرحمة ، أن يحمل عنها هذه اللفافة التي قصمت ظهرها ، وهدت قوتها ، وأوهت عزمها .

وبحسن نية ، وغفلة تامة ، يمد الشخص يده ليحمل الحمل عن تلك العجوز المسكينة ، ويزيل العبء المضني عن عاتقها ، وبمجرد أن تلامس يده يدها ، تمتص دمه ، في لحظة صاعقة ، وتتركه جسما بلا روح ، كالاسفنجة المعصورة ، وهذه إحدى

صورهــا التي تحتــال بها ، وهي واحـدة من عدة أحـابيـل ، وحيلة من مجمـوعة حيل ، وخدعة من خدع تتفنن فيها ، وتغير وتبدل فيها في كل ليلة ، حتى لا يكتشف النـاس جميـع أحـابيلهـا وحيلهـا وخـدعهـا ، فيحـذروهـا ، وقد كانوا سيكتشفون وسـائلها الخبيثة هذه لو لم تنوعّ فيها وتغيّر ، وهذا التنويع والتغيير هو سر نجاحها في تعدد ضحاياها ، وإدراكها هدفها ، وبلوغها مقاصدها . لقد كانت هذه الاحـابيـل والخـدع وسـائـل تزرع الرعب ، فتجعل الناس يبتعدون عن كل عجوز يرونها ليلا ، ظناً أنها «الدّجيرة» . وإذا كانت الدّجّيرة- يا بني- في مكـة المكـرمـة مصدر قلق الأطفال ورعبهم ، ووسيلة تخويف الكبـار للصغار ، يتخذونها وسيلة للتـأديب ، فإنها في نجـد «السِّعلوّة» ، ولهـا صور متعددة ، وأحاديث مرعبة .

وأمور الجن- يا بني- ليست وليدة زمننا ، فهي قديمـة إذ وردت في القرآن الكريم ولكن بصورة معينة محددة ، ثم لم يلبث أن أُطْلِقَ العنان في الأدب



لقصص الجن ، وانطلق القصّاص يروون في هذا المجال ما لا يصدق لغرابته ، وإغراقه في الخيال .

وسأقص عليك قصة واحدة أو قصتين وردتا في كتاب يسمى : «نوادر القصص عند العرب» ، وفيها أو فيهما ما في القصص عادة من طرافة :

قال القاضي يحيى بن أكثم : دخلت يوماً على هارون الرشيد ، وهو مطرق مفكر ، فقال لي : أتعرف قائل هذا البيت :

الخير أبقى وإن طال الزمان به

والشر أخبث ما أوعيت من زاد

فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن بهذا البيت شأنا مع عبيد بن الأبرص[1] . فقال : أخبرني عنه ، فقلت : حدث عبيد قال : كنت في بعض السنين حاجاً ، فلما توسطت البادية في شديد الحرّ ، سمعت ضجة عظيمة في القافلة ، ألحقت أولها بآخرها . فسألت عن القصة ، فقال لي رجل من القوم : تقدّم تَرَ ما بالناس ،

---

(١) ينسب إلى مضرس بن ربعي . قوانين الوزارة ١٠٢ .



فتقدّمت إلى أول القافلة ، فإذا أنا بشجاع (ذكر الحية) أسود فاغر فاه كالجذع ، وهو يخور كما يخور الثور ، ويرغو كرغاء البعير ، فهالني أمره ، وبقيت لا أهتدي إلى ما أصنع ، فَعَدَلْنا عنِ طريقه إلى ناحية أخرى ، فعارضنا ثانياً ، ولم يجسر أحد من القوم أن يقربه ، فقلت : أفدي هذا العالم بنفسي ، وأتقرب إلى الله تعالى بخلاص هذه القافلة منه .

فأخذت قربة من الماء ، فتقلدتها ، وسللت سيفي ، فلما رآني قربت سكن ، وبقيت متوقعاً منه وثبة يبتلعني فيها ، فلما رأى القربة فتح فاه ، فجعلت فم القربة في فيه ، وصببت الماء كما يصب في الإناء . فلما فرغت القربة تسيّب في الرمل ، ومضى . وتعجبت من تعرضه لنا ، وانصرافه عنا من غير سوء لحقنا ، ومضينا لحجّنا .

ثم عدنا في طريقنا ذلك ، وحططنا في



منـــزلنـا ذلـك ، في ليلة مظلمـة مدلهمـة ، فأخـذت شيئـاً من الماء ، وعـدلت ناحيـة الـطريق ، فأخـذتني عيني ، فنمت مكاني ، فلما استيقظت من النوم لم أجد للقافلة حساً ، وقد ارتحلوا ، وبقيت منفردًا لم أر أحداً ، ولم أهتد إلى ما أفعله ، وأخذتني الحيرة ، وجعلت أضـــطرب ، وإذا بصـــوت هاتف أسمـــع صوته ، ولا أرى شخصه ، يقول :

يا أيها الشخص المضل مركبه
ما عنده من ذي رشاد يصحبه
دونـك هذا البكـر منا تركـبه
وبكـرك الميمـون حقـا تجـنبه
حتى إذا ما الليـل زال غيهـبه
عند الصبـاح في الفـلا تسيّبه

فنظرت فإذا ببكرٍ قائم عندي ، وبكري إلى جانـبي ، فأنختـــه وركبتـــه ، وجنبت بكري ، فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لي القافلة ، وانفجر الفجر ، ووقف البكر ،



فعلمت أنه قد حان نزولي ، فتحولت إلى البكر ، وقلت :

يا أيها البكر قد أنجيت من كرب
ومن هموم تضل المدلج الهادي
ألا فخبرني ، بالله خالقنا
من ذا الذي جاد بالمعروف في الوادي
وارجع حميداً فقد بلغتنا مننا
بوركت من ذي سنام رائح غادي

فالتفت البكر إليّ وهو يقول :

أنا الشجاع الذي ألفيتني رَمِضًا
والله يكشف ضر الحائر الصادي
فجدتَ بالماء لما ضنّ حامله
نصف النهار على الرمضاء في الوادي
الخير أبقى وإن طال الزمان به
والشر أخبثُ ما أوعيتَ من زاد
هذا جزاؤك منّا لا يُمَنّ به
لك الجميل علينا إنك البادي



فعجب الرشيد من قوله، وأمر بالقصة والأبيات، فكتبت، وقال: «لا يضيع المعروف أين وضع». [1]

هذه قصة - يا بني - جميلة وممتعة، أما عن صحتها أو افتعالها فسأتركك تمّحص أمرهما بنفسك، مستضيئاً في التمحيص بما أعطيتك من قبل من قصة أبي سفيان مع عمر - رضي الله عنه - فقد حاولت بنفسي آنذاك أن أفحص تفاصيلها على النحو الذي عرضته عليك، وأرجو أن يكون فيما فعلته مساعدة لك على تمحيص هذه القصة. فإن عليك أن تتذكر وأنت تفحص هذه القصة أن عبيد ابن الأبرص يبدو تاجراً بضاعته الشعر، وأنه يحرص على أن يوجد سوقاً يبيع فيه بضاعته، ويجعلها رائجة فيه، وأنه على ما جاء في أول القصة كان واحداً من المسافرين، وفي مؤخرة الصفوف، وأنه تقدم فجأة، كما يفعل الحصان في السباق عندما يفاجئ المتسابقين بما لم يكن في حسبانهم، وإنه

(١) نوادر القصص عند العرب ١٥٩.

بهذا التقـدم قد أصبـح بطل الموقف ، يستطيع أن يفعـل مايريـد ، وأن يأخـذ قصب السبق ، لأنـه شجـاع قَابَـل الشُّجـاع بعـدتي الفخر : الشجاعة والكرم . وهو بهذا كله يكون قد سلط الأضواء على نفسه في مسرح أعده بنفسه ولنفسه اعدادًا متقناً .

إن عليك أن تتذكر - يا بني - أن عبيداً عاد فيها بعد إلى الموضع نفسه الذي وقعت فيه الواقعة الأولى ، وقد يكون هذا الموضع على الطريق المطروق ، ولكنه انفرد ولم ينس أن يحمل قربته معه ، وهذا ما يفعله المحتاط دائماً ، ثم إنـه نام نومـاً عميقـاً لم يسمـع فيه رحيل القـافلة ، مع أن القـافلة لها ضجيج وضوضاء معتاد تمثلهـا الصـورة الجميلة المعـبرة التي أحسن رسمهـا الشاعر حين قال :

أجمعـوا أمـرهـم بليـل فلمـا
أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
مـن منـاد ومـن مجـيب ومـن
تصهال خيل خلال ذاك رغاء



وعنـدمـا احتـار عبيـد وجد البعير فجأة ، وقد تقـول- يا بني- لماذا هذا البعـير وبعـيره أيضاً قد أحضر ، الجـواب- يا بني- أن عبـيـداً يعـرف ما لا تعرف عن عادات القوم في الصحراء ، فالبعير الواحد- يا بني- مخاطرة مثل السيارة الواحدة التي تعبر بها «مقطعة» في الصحراء ، إنها قد تتعطل ، وكـذلـك الجمل قد يموت ، ولا يجزيك حينئذ أن تقول : إن الجن سوف تعوّضه إذا مات ، فالعادات هي العادات . ويجب أن تراعى . ولا تقل- يا بني- لماذا لم يركب بعـيره ، بدلاً من أن يركب البكـر ، وعبيد عنده الجواب معدّ ، فالبكر هو الذي يعرف الطريق إلى القافلة ، وبعيره مراح لكي يستعد لبقية الرحلة .

وإذا تذكرت- يا بني- أن بضاعة عبيد الرئيسة هي الشعر ، وهو الذي أدّى إلى إقامة هذا المسرح الذي تجرى عليه القصة ، عرفت أن ما بقي عنده من هذه البضاعة جاء دفعة واحدة عند «الحراج» الأخـير الشـامل ، فأصبح هذا الشعر حينئذ وافياً

بالحكمة التي جاءت في البيت الذي دعا الرشيد أصلاً إلى التساؤل، ووافياً بتفسير ما هو غامض من أمر الجني.

إذا تذكرت هذا كنهِ - يا بني - وفحصته فحصاً دقيقاً، وقلّبته تقليباً كاملاً، على جميع جوانبه، فقد تصل إلى كُنْهِ الأمر، وهل القصة مختلفة لصالح عبيد وشعره؟ أو أنها صحيحة. ولا تنس - يا بني - أن تتذكر أن الأفكار التي جالت في ذهن عبيد، وضمنها في أبيات شعره، لو أنه قالها بدون القصة لما أقبل عليها السُّمَّار، ولا جلبت المستمعين. فقد تتصور أنت أنها مشجب علق عليه أشعاره، واحتال على الناس، كما احتلت أنا وأنت في الجزء الرابع من «أي بني» عندما علقنا ما تناثر من آراء عن الماضي على مشجب الأمثال[1]!

وقصص الجن - يا بني - ازدهرت بين عرب الصحراء، في الجاهلية والإسلام، وأصبحت

(١) انظر الجزء الرابع من «أي بنّي» أ، ب من المقدمة.



عنصر تسلية مُهمّا في سمرهم، لا يملون من اختراعها أو ترديدها. والصحراء- كما تعرف يا بني- موحشة ليلا ونهارا، فانفراد الشخص في صحراء قفر، مع الهدوء والانفساح، يوحي بالتخيل والتصور والأوهام؛ حفيف الأشجار في سكون الليل، وصفير الريح في هدأة الوقت، وحركة حيوان من بعيد تجعل المتوحد المنفرد يؤوّل الأشياء، ويتخيل الشر في كل نبرة وصوت وظل.

وعندما دخل ابن الصحراء المدينة، وسكن البيوت، لم يترك هذا الأمر في الصحراء، بل أدخله معه إلى المدينة، فالبيت الفلاني الخالي مسكون بالجن، والرجل المنفرد في بيت ليس فيه معه أحد يتخيل أن هناك جنّا يستفيدون من بقية الغرف. وكم من بيت- يا بني- كسد سوقه بسبب إشاعة تطلق عليه، تنتشر بين الناس، فتثبت في أذهانهم، ولا يمحوها شيء. ومن الأمثلة على قصص الجن هذا الحوار الذي دار بين شخصين، فقد قال أحدهما أمامك- يا بني- أن الجن يطفئون بعض

«لمبات» الكهرباء في بيته ويسرجونها حسب ما يحلو لهم، فقلت أنت: إن اللمبات عندنا في الممر الفلاني تفعل ذلك، وأننا أحضرنا كهربائيا متخصصا، فاكتشف خللا أصلحه، ولم تعد تفعل ماكانت تفعله من قبل، فتنبّه هو إلى شيء قريب كان غافلا عنه.

وأمر الجن ليس مقتصراً على بيئتنا نحن العرب، ولكن الغربيين أيضاً - يا بني - عندهم قصص عن الجن، وعندهم ما يقلقهم أكثر من الجن: الأرواح التي تسكن البيوت، وتؤذي سكانها وتقلقهم، وتقلب نعيمهم فيها جحيماً. وهي عادةً أرواح الموتى من العائلة التي كانت تسكن البيت في الماضي. تعود هذه الأرواح فتظهر أحياناً في الليل في أبشع الصور، فتعترض طريق أهل البيت الأحياء، وتوقظهم من نومهم بالضجيج والموسيقى الشاذة النشاز أحياناً، وتحطم بعض الأواني والأثاث. وقد تضطر الناس إلى هجر البيوت، والبعد عنها. والبيوت المهجورة تكون عادة مرتعاً خصباً لمثل هذه



الأرواح التي يأتي منها أحياناً ما يوجب الإلتفات والتحري من الشرطة ، فهناك مثلا بيت تخرج منه أحجار تلقى على المارة أو على الأطفال الذين يحاولون دخول هذا البيت ، ولكن بعد التحري يتبين أن هناك صعلوكاً متشرداً قد جعل من هذا البيت مأوى وملاذاً ، ولا يريد أن يشاركه فيه أحد ، خاصة هؤلاء الصغار المقلقين .

هذا - يا بني - ما يمكن أن نقوله عن القصة الأولى من تحليل ، ومن تعليق . ولا بد أنك متشوق إلى القصة الثانية التي وردت في الأدب العربي وهي طريفة أيضاً - يا بني - :

حدث زياد بن النضر الحارثي ، قال :

كنا على غدير لنا في الجاهلية ، ومعنا رجل من الحي يقال له : عمرو بن مالك ، معه بنيّة له شابة ، على ظهرها ذؤابة ، فقال لها أبوها : «خذي هذه الصحفة ، ثم أئت الغدير ، فجيئينا بشيء من مائه» .

فانطلقت، فواقفها عليه جان، فاختطفها، وذهب بها، فلما فقدناها نادى أبوها في الحي، فخرجنا على كل صعب وذلول، وقصدنا كل شعب ونقب، فلم نجد لها أثراً. ومضت على ذلك السنون، حتى كان زمن عمر بن الخطاب، فإذا هي قد جاءت، وقد عفا شعرها وأظفارها، وتغيرت حالها، فقال لها أبوها: «أي بنية، أنّى كنت؟» وقام إليها يقبّلها، ويشم ريحها. فقالت: «يا أبت، أتذكر ليلة الغدير؟» قال: «نعم»، قالت: «فإنه واقفني عليها جان، فاختطفني، فذهب بي، فلم أزل فيهم، حتى إذا كان الآن غزا هو وأهله قوما مشركين، أو غزاهم قوم مشركون، فجعل لله - تبارك وتعالى - نذراً إن هم ظفروا بعدوّهم أن يعتقني، ويردّني إلى أهلي، فظفروا، فحملني، فأصبحت عندكم، وقد جعل بيني وبينه أمارة، إن احتجت إليه، أن أولول بصوتي، فإنه يحضرني».

فأخذ أبوها من شعرها وأظافرها، وأصلح من



شأنها ، وزوجها رجلا من أهله ، فوقع بينها وبينه ذات يوم ما يقع بين المرأة وبعلها ، فعيّرها ، وقال : «يا مجنونة ! والله إن نشأت إلا في الجن» .

فصاحت ، وولولت بأعلى صوتها ، فإذا هاتف يهتف : «يا معشر بني الحارث ، اجتمعوا وكونوا حبا وكرامة» : فاجتمعنا . فقلنا : «ما أنت - رحمك الله - فإنا نسمع صوتاً ولا نرى شخصاً ! فقال : «أنا رابّ (كافل) فلانة ، رعيتها في الجاهلية بحسبي ، وصنتها بالإسلام بديني ، والله ما نلت منها محرماً قط ، واستغاثت في هذا الوقت . فحضرت فسألتها عن أمرها ، فزعمت أن زوجها عيّرها بأنها كانت فينا ، ووالله لو كنت تقدمت إليه لفقأت عينيه !» فقلنا : «يا عبد الله ، لك الحباء والجزاء والمكافأة» . فقال : «ذلك إليه» (يعني الزوج) .[1]

هذه - يا بني - قصة طريفة وعجيبة ، ولن أضع علامات على الطريق تساعدك على الاهتداء إلى

---

(١) نوادر القصص عند العرب ١٦٥ .



مدى صحتها أو ضعفها وانتحالها ، لأني أرجو أن تكـون ملكتـك في اكتشاف الحقيقة من الزيـف ، والصحيـح من المختلق ، قد نضجت وقـويت ، وتستطيع أن تقف على قدميك في هذا المجال .

أي بني !

لقد اختفى اليوم أيضاً من مكة المكرمة - شرفها الله - « العسّـة » ، بصفـارته المعهودة ، التي لا تَكِلُّ ولا تهدأ ، يبدد صفيرها هدوء الليل وسكونه ، ولكنه يدخـل الـطمـأنينـة والأمـان إلى قلوب الناس ، ويعلمهم ويؤكـد لهم أن هناك عيناً يقظة تحرسهم بعـد حفظ الله ورعـايتـه لهم ، لذلك فهم ينامون مطمئنـين لا يقلقهم شيء ، ولا يخافـون من إزعاج لص ، أو تسلل ناقص خلق ، أو مختل عقل .

يطلق العسة صفارته بين آن وآخر ليطمئن من يهمـه الأمـر أنـه يقظ متنبـه ، لم يغلبـه النوم ، ولم يستسلم لجيوشه ، فقد حصن نفسه منها بنوم عميق طويـل في النهـار ، وليعلمهم أنـه يرقب بعينيـه ،



ويسمع بأذنيه ، أقل حركة ، وأهدأ نبرة ، فالسكون من حوله يساعده على ذلك .

والعسّة يتحرك بين آن وآخر ، في حدود ما عُيِّنَ له من مكان ، ويجول فيما رسم له من ميدان ؛ يطل على بعض المنحنيات والأزقة الملتوية في حارته أو شارعهِ مما لا يدخلٍ في نطاق عمل عسة آخر في موقع مجاور له . وأحياناً يطلق صفارته رداً على صفير من صفارة عسة آخر ، يُؤْذِنُهُ بخروج شخص من حدوده إلى حدود جاره .

وأحياناً تتجاوب الصفارات في وقت معين ، لتنبه أنَّ كل واحد من العسس يقظ متنبه ، لم ينم أو يغفل أو يترك منطقته ؛ فتذكر هذه الصفارات الصغار بأذان الديوك عندما يؤذن أحدها فتجاوبه الأُخَر ، خاصة قرب أذان الفجر . ويأتي وقت يرتفع فيه صوت صفارة المشرف على العسس ، يطمئن بها على أن الأمر سائر بما يرضيه ، فتتجاوب صفارات الآخرين ، وكأنها تردّ تحيته بمثلها .

وللخطر صفير خاص- يا بني- ، صفير صلف عال متتابع مزعج ، مثل صفارات الإنذار اليوم ، يُنبِّه به أحدُ العسس زملاءه الآخرين ، ويدعوهم للتكاتف والتعاضد فيما بينهم في المواقع المتقاربة والمتجاورة . وللعسس كبير كما ذكرنا ، يختاره المسؤولون عن الأمن ، ممن يعتمد عليهم ، ويوثق بأمانتهم وخلقهم وبتجاربهم ؛ وهو يقوم بجولات مستمرة بين الأحياء ، يفاجئ فيها العسة النائم أو المهمل .

وبجانب ما ذكرنا من أن العسس هم في العادة عوامل اطمئنان ، ومصدر تثبيت للراحة النفسية في الأحياء ، فإنهم أيضاً مصدر أنس ، وطاردوا وحشة لِقَلِقٍ أو سهران جافاه النوم ، وهجرهُ الكرى ، واجتواه الفراش ، فيقضي بقية ليله مُؤْنَساً أو مُؤنِساً . وقد يكون العسس مصدر عون ، ومساعدة لمحتاج داهمه المرض ، أو حلّت به كارثة . وقد يكونون رسل سلام لمشادّة عائلية انفجرت في ظلمة الليل الهادئ ، فأفزعت الجيران ، وحركت



الحي ، وأيقظت النائمين .

هذه صورة اختفت - يا بني - ولم تعد ترى ، طحنتها آلة التطور ، وسحقتها عجلة التقدم ، وضاعت الحاجة إليها بعد أن تغيرت سمات الحي ، وأحوال المجتمع . وحل محلها ما هو أنسب منها للحياة الجديدة .

أي بني !

هناك منظر آخر في مكة المكرمة - شرفها الله - اختفى ، ولم يعد له وجود ، وبدأ يختفي معه جيل يذكره ، ويعتبره صورة جميلة من صور حياته ، تربض خلفها عادات وتقاليد تغليها ، ويتمتع أهلها باجترار ذكرياتها . اختفت - يا بني - من القشاشية - حارة من حارات مكة - صفوف السيارات القديمة «أبو رفزة» و «أربعة سرندل» طراز أواخر العشرينات الميلادية ، أو أوائل الثلاثنيات ، وكانت هذه السيارات تقف بجانب عربات الحنطور التي تجرها خيل هزيلة ، أنهكها حرّ مكة - شرفها الله -

وهدّها العمل المتواصل والجهد الشديد المبذول . وهي تنتظر من يستأجرها من النساء اللاتي يذهبن لزيارة قريباتهن وصديقاتهن عصراً ؛ إذ لا غسيل في هذا الوقت ولا طبخ ولا كنس ولا خياطة ، والرجال فيه خارج بيوتهم ، لا يحتاجون إلى من يخدمهم منهن . فهو لذلك خير وقت لتبادل الزيارات المرتبة . وإن ركوب هذه الحناطير ، أو هذه السيارات ، كان يعطي مدلولا خاصا مميزا لراكباته على الأخريات اللاتي يذهبن على الأقدام ، لأنهن لا يستطعن أن يركبن السيارات المستأجرة .

وركوب هذه الوسائل من المواصلات كان يتيح للنساء فرصة زيارة بيوت صديقاتهن البعيدة بسرعة ، فوقت العصر قصير ، ولو مشت الزائرات لضاع الوقت في المشي ؛ كما أن المشي الطويل في مكة المكرمة- شرفها الله- كان يرهق النساء المكممات باللباس الساتر من «قنعة» و «كاب» و «جاما» و«ملاية تركي» ؛ وبغير هذه الأنواع من اللباس الخارجي ، بالاضافة إلى أنواع الحذاء من «تليك»



و «تاسومة» و «خف» و «بابوج» . يضاف إلى ذلك كله الارهـاق من جراء الحـر ، ووهـج الشمس ، الذي تختزنه جبال مكة ، ثم تعود فتنفثه إلى ما يقرب من منتصف الليل ، وهو أمر لا يسمح بنسمة هواء منعشـة . وتكـاد مدة الـوقت المعتدل تنحصر بين منتصف الليل والصباح .

لم أتكلم - يا بني - عن دور السيارات للرجال ، لأني أردت أن أجعل للنساء حديثاً لا يشاركهن فيه الرجال ، لكي أبعد لوم من يقول أني تكلمت عن أمور الرجال أكثر مما تكلمت عن أمور النساء ، لقد رددتَ أنت - يا بني - على من ظن أني لم أعط البنات حقهن في الأجزاء السابقة ، وأعجبني ردك - يا بني - على هذا القول ، مما يدل على نضجك ، وأرجو أن يكون أحد أسباب هذا النضج حديثنا المتواصل عن أمـور الحياة . لقد جاء في ردك أنني أعرَف بأمور الرجال مني بأمور النساء ، وأن النساء اليوم قادرات على أن يأخذن على عاتقهن من أمورهن مثلما أخذنا على عاتقنـا من أمور الرجال . وقلت أيضاً أننا لم



نهمل الحديث عن النساء ، وجئنا هنا وهناك بصور مضيئة عنهن في الجاهلية والإسلام إلى يومنا هذا . وحديثنا كان كالمعتاد يأتي مفاجأة ، واستطرادا ، ومبثوثا بين المواضيع ، سيرا على ما وعدنا به من مراعاة منهج حديث المجالس ، ووفاء بما تعهدنا به من البعد عن الملل وما يوصل إليه ، ما أمكننا ذلك .

أي بني !

اختفى منظر كان مألوفاً في مكة المكرمة - شرفها الله - وهو منظر «الحامل» أو «الحمال» بزنبيله الذي يكمل المنظر ، وقد قُوِّي أسفله على الأقل بجلد يجعله يتحمل ما يوضع فيه ، ويقاوم الزمن . اختصت فئة من الناس أو فئتين بذلك ، امتازت بقوة الجسم ، وحمل الأثقال . تجدها في الأسواق حيث توجد البضائع والمخازن ، أو «الحلقات» حيث تباع الخضروات . ولا بد - يا بني - أن رقبة الواحد منهم مع كثرة حمل الزنبيل بما فيه من ثقل قد أصبحت عضلاتها معدة لمثل هذ العبء . ولعل أصعب ما على الحامل أو الحمال رفع الشيء على



رأسه أو إنزاله ، وحينئذ قد يحتاج إلى زميل يساعده ، ولأن زميله ليس معه عند إنزال الزنبيل المملوء بما يجهد ، فإن صاحب البيت أو الدكان يساعده في إنزاله .

والحمالون الذين اعتاد الناس رؤيتهم في الأسواق والحارات إثنان حمال بزنبيل وحمال بحبل ، الزنبيل يوضع فيه ما يحتاج إلى احتواء وجمع ، والحبل للأكياس والأشياء الكبيرة ، كالدواليب ونحوها من الأثاث . كان الحمالون يتفاخرون بقوتهم ، وتميز أحدهم على الآخرين ؛ لأن هذا يعطيه فرصة حمل ما قد لا يستطيع حمله آخر ، أو إيصال ما لا يستطيع غيره إيصاله دون توقف ، لبعد المسافة ، ولما في إيصاله من توقع التعب والارهاق .

وينافس الحيوانُ الحمالين حين تكون هناك «قطعة» من الأثاث حَمْلُها فوق طاقة البشر ، فيأتي حينئذ دور الحمار ، ولكن لا بد من مشاركة العنصر البشري ، لوضع المحمول على ظهر الحمار وإنزاله ، وصاحب الحمار حمّال أيضاً ، وهذه ميزة له على

غيره ، وإن كان عليه أن يقيت الحمار ، وأن يشبعه ليكون في وضع يسمح له بحملٍ الأثقال . أما غيره من الحمالين ممن لا يملك حماراً فلا يحمل إلا همّ كسب قوت نفسه وذويه إن وجدوا .

ويحرص صاحب البضاعة أن يتفق مع الحمال أو الحامل على أجرة نقلها حتى لا يختلف الاثنان فيما بعد ، والاتفاق مقدماً يقطع دابر الشقاق ، ويحول دون الطمع من أي من الطرفين ؛ لأن كلاً منهما عرضة للطمع بعد أن تكون البضاعة قد نقلت ، فالحمال يطمع لأنه قد نقلها ولاحظ صاحبها العناء والمشقة في نقلها ، ولم يعد له خيار أن يبحث عن حمال آخر ، كما كان يمكنه أن يفعل في أول الأمر ، عندما كانت المنافسة من الحمالين الآخرين ممكنة . وصاحب البضاعة يطمع لأن البضاعة قد نقلت ، وليس أمام الحامل إلا أن يقبل ما يدفعه صاحب البضاعة مهما كان مقداره ، أو يعيد البضاعة إلى مكانها الذي جاء بها منه ، وفي هذا لو قبله الحمال ما فيه من العناء والغباء مما يستبعد معها حدوثه . ولكن هذا - يا بني - حدث من بعض الحمالين ،

الذين يضرب بهم المثل في العناد فقد أعادوا الحمل مع ما عاد بذلك من ضرر، ويحدث هذا الشقاق على الأعم الأغلب في حالة واحدة هي عندما تكون البضاعة المحمولة خفيفة، والمسافة قصيرة، فصاحب البضاعة يظن أن الأمر واضح، والحمال مثله يظن أن الأمر واضح، فيحدث الاختلاف، ويتبين أن الأمر أبعد ما يكون عن الوضوح. !

وما دمنا - يا بني - نتحدث عن الحمل وما يقوم به بعض الحمالين، فلعله يبهجك أن تسمع بعض القصص الطريفة التي وردت في الأدب العربي عن ذلك، وستجد أنها مبعدة للملل، وفي بعضها من النبل والتواضع ما يجعلك تقف عندها وقفة إعجاب وتقدير. وفي بعضها ما يجعلك تتنبه إلى عرض كل شيء على الفكر والتمحيص حتى لا تقع فيما وقع فيه أبو حنيفة: قال أبو حنيفة خدعتني امرأة أشارت إلى كيس مطروح في الطريق فتوهمت أنه لها، فحملته إليها، فقالت: احتفظ به حتى يجيء صاحبه.[1]

(١) أخبار الظراف ١٧٤.

وليس- يابني- في حمل الأشياء عيب ، بل هو دليل على القوة والصحة ، ففي الزمن القديم لم يكن النـاس يستعينـون بمن يحمـل لهم أحمـالهم ، ولا يلجـؤون إلى ذلـك إلا إذا كان حملهـا فوق طاقتهم ، إمـا لضعف بنيتهم ، أو لمرض ألم بهم . ولعلك تذكر أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- حمل كيس الدقيق الذي أراد أن يسعف به المرأة التي كانت تسلي أبناءها بطبخ الحجارة وهم يتضورون جوعا ؛ ولما عرض عليه صاحبه أن يحمله عنه ، قال له ما معناه : إنك لن تحمل ذنوبي عني يوم القيامة ، أو قول بهذا المعنى .

ويـروى عن الصحـابي الجليلٍ- أبي هريرة - رضي الله عنه ، وهو أمير المدينة نائباً عن مروان ، أنه كان يحمل الحزمة من الحطب ، وهو خليفة مروان ، ويقول : «وسعوا للأمير ! » .[1]

وما دمنا في نطاق الحمالين ، والحمد لله أننا لسنا-

---

(١) محاضرات الأدبـاء ١١٠ .



يا بني - في زنبيلهم ! فسأقص عليك قصة فيها بعض ما في قصة أبي هريرة ، وفيها بعض ما في قصة أبي حنيفة وفيها أيضاً من الإيلام ما يجب أن تتنبه له ، كي لا تصبح من أهل التنابز بالألقاب ، وهو أمر ممجوج . إن الإنسان لا يضيره أبداً - يا بني - أن ينادي الناس بأحب الأسماء إليهم ، لأن في ذلك إمالة للقلوب ، وجلباً لحب الناس . أما مناداتهم بأسماء منفرة ، فإن فيها قسوة ، وهمجية ، ونقص خلق وعقل ، وهي تدل أيضاً على عدم تربية ، وعلى تكبر ، واستهتار بحقوق الآخرين . ما ضر من نادى سلمان في القصة الآتية أن يقول له : يا أخي ، أو يا عبد الله . لقد اختار لندائه كلمة لم يلبث أن ندم عليها ، فجعل الله همّه همّين : همّ المناداة ، وهمّ ما اكتشفه بعد ذلك ، مما جعله يجهد في الاعتذار :

اشترى رجل شيئاً ، فمرّ بسلمان (الفارسي) ؛ ، وهو أمير المدائن ، فلم يعرفه ، فقال : «أحمل هذا معي يا علج» . فحمله . وكان من يتلقاه يقول : «إدفعه إليّ



أيها الأمير» فيقول: «لا، والله لا يحمله إلا العلج». والرجل يعتذر إليه، ويسأله أن يرّده عليه، وهو يأبى، حتى حمله إلى مقره.[1]

كل من سمع - يا بني - هذه القصة أعجب بسلمان إعجاباً شديداً، لخلقه ولحسن تصرفه، بسبب تغلغل الإيمان في قلبه، كيف لا وقد قبس هذا الإيمان من مصدره - ﷺ - إن أحداً لا يريد أن يكون مكان الرجل الذي نادى سلمان ليحمل الحمل. إن كلمة «علج» تجعلك وتجعلني نخجل من هذه الكلمة، ونحن نحس أن المشهد كأنه قائم أمامنا، لم تمر عليه السنون، ولم تَضِع معالمه بعد. إن بشاعة هذه الكلمة «علج» تتضح لو وضعت بدلاً منها كلمة «أخي»، ان الفرق بينهما كبير. هل تذكر الشاعر الذي اعتذر عن الهجو لا عجزاً ولكن ترفّعا، وقال إنه يمكن لمن يبني أن يَهدم، أن كلمة «علج» هذه هدم حقاً بل هي من أشد أنواع الهدم.

---

(١) محاضرات الأدباء ١١٠.

أي بني !

ولقد اختفى من مكة المكرمة - شرفها الله - أيضاً المركاز ، أو كاد ، وفقدت المراكيز روحها القديمة ، ومظهرها المعتاد ، لأن محيطها قد تغيّر ، واختلف روادها ، فلم يعد الناس ينتظرون حلول وقت العصر لتخف حرارة الشمس ، فيخرجوا للقهاوي في أماكنها الرحبة ، طلباً « للطراوة » ، والبرودة ؛ فقد جاءتهم البرودة اليوم في عقر دارهم ، وعمت بيوتهم ، ولم يعودوا يحتاجون إلى أن يناموا في الليل خارج بيوتهم على الكراسي في قهاوي « الششة » أو قهوة « عصمان » ، ولا في قهاوي « الخريق » أو « المسفلة » أو غيرهما . لقد أصبحت المراوح الكهربائية ، في أول الأمر ، تدور فوق رؤوسهم ، أو هي في الحائط أمامهم ، أو على قاعدة ثابتة ، تحرك الهواء بانتظام ، فيبرد ، ثم تلت ذلك المكيفات ، وكانت لفترة من الزمن « صحراوية » تبرد الجو وترطبه . ثم جاءت مكيفات « الفريون » ، تنفث البرودة ، وتهيء الجو المناسب الذي



يتحكمون فيه بما يحلو لهم مما لم يكونوا يحلمون به أو بجزء منه في الماضي . وأصبحت المفاضلة تدور الآن على مايتميّز به مكيف عن آخر من درجة الهواء ، والمنظر الجميل ، ونحو ذلك .

من هذا ترى - يا بني - أن هناك مظهراً من مظاهر حياة الناس قبل سنوات اختفى ، وابتلعته الأيام ، ولم تترك له أثراً إلا باهتا ، أو في أذهان الناس الذين عاشوا في تلك الفترة ، وهم في اختفاء تدريجي . ومادمنا - يا بني - في الاختفاء التدريجي ، والحديث عنه ، فلنتحدث عن مظهر من المظاهر التي اختفت أو كادت ، والصور التي انطمست ، أو بهتت تدريجياً :

أي بني !

إلى وقت قريب ، كان الإنسان إذا دخل في بعض المجالس ، ورأى رجلا أو أكثر من كبار السن ، يسمع أخباراً عن غزوات الملك عبدالعزيز ، أو السرايا التي كان يرسلها ، أو العصاة الذين كان



يؤدبهم ، ويسمع وقائع الاستيلاء على المدن والمناطق ، ويسمع شتى الأخبار ، بعضها مجمل وبعضها مفصل ، وفيها من الوصف الطريف مايشد ، ويترك الحاضرين في صمت وانصات ، يستمعون بشغف إلى مايروى ويقص . ويُسمع عن حادثة واحدة روايات عديدة ومتنوعة ، وبعضها مختلف ؛ يُسمع عن الخطط وتنظيمها ، والطرق التي سلكتها الجيوش ، والحيل والخدع التي استعملت لمفاجأة العدو ، ويسمع عن تصرف الشجعان ، ومواقف البطولة ، ويسمع عن انتصار وانكسار ، وربح وخسارة ، وجيوش كبيرة وصغيرة ، وفرق نهارية ، وسرايا ليلية ، ويسمع عن « الزهاب » ونوعه ، والمؤن وكميتها ، ويسمع عن السلاح وأنواعه ، والجديد منه ، ويسمع عن دور البعير والحصان ، وعن الحصون وصمودها ، والقلاع وسقوطها ، ويسمع عن حوامي المدن وأسوارها وأبراجها ومربعاتها ، ويسمع عن التسلل الليلي ، وتسلق الأسوار ونقبها ، وعن المفاوضات



والمحادثات ، والإصرار والتحدي ، والتنازل والاستسلام .

لقد كان بعض ما يُسمع في أثناء ذلك وفي خلال الأحاديث ، قصصاً طريفة ، وصوراً مفاجئة ، مما يمكن السامع من أخذ فكرة عن الواقع لم تكن تخطر على باله ، وهو بعيد عن ميدانها وزمنها ، وعن الحالة النفسية التي عاشها أهلها :

روى أحدهم - قبل سنوات - عن والده ، قال : كان والدي يتحدث عن مشاركته في حروب الملك عبد العزيز - رحمه الله - ويصف بعض الأمور التي تجرى عليهم أو منهم ، وكان يسهب في هذا ، ويذهب في الحديث مذاهب ، وكنت صغيراً لا أقدّر أهمية مثل هذه القصص ، ولكن بقي في ذهني منها بعضها ، لكثرة الترداد والإعادة ، وهي مما يستحق أن يسجل :

قال :

ان الناس ، في زحفهم نحو العدو ،



يحمـــلون همّا كبـــيراً ، لأنهم لا يدرون عما يمكن أن يفاجئهم مهما كان عددهم أكثر من عدوهـم ، والموقف موقف جد وليس نزهة في الصحراء وقت الربيع . فهم في طريقهم إلى ميدان حرب ، المرء فيه إما قاتل أو مقتول أو جريح ، وجرح عن جرح يختلف ، فجرح سطحيٍ ، يبرأ بعد أيام ، وآخر عميق يأخذ شهوراً أو سنين ، أو تأتي منه إعاقة تلازم المرء طوال العمر ، فيصبح المصاب فيما بقي من عمـره عالـة على أهله ، يُحمـل ويـوضع ، ويُغسّل ويُلبّس ، ويؤكّل ويشرّب .

ومن أبـرز مظاهـر الاستعـداد للمعركة التشحّط والتكرب اللذان يسبقانها مباشرة ، فراكبـو الخيـل والإبل والراجلون يسيرون صامتـــين ، كأن على رؤوسـهـم الـطير ، لا ينبسون ببنت شفة ، ولا تسمع لهم همسة ؛ ليس هناك إلا صهيل خيل أو نخيرها ، أو رغـــاء بعـــير متقـطع نتيجـة شد مفـاجئ

لخطامها ، أو بسبب ضربة عصا تحثها على السيّر ، وعلى مجارات الأخريات ، أو صرير «شداد» ، أو وقع حافر على أرض صلبة ، أو قرع سلاح . وليس هذا أهم مظهر للتمسّس والتشحّط والرهبة والهمّ ، ولكن هناك مظهر طريف ، ومسكوت عنه لطبيعته ، وهو كثرة وقوف الغزاة بين آن وآخر لنثر البول ، حتى لتكاد تعرف مدى همّ هؤلاء الغزاة بالتقريب من مرّات وقوف الأفراد لهذا الغرض .

ثم يلتقي الجمعان ، فإذا ما التقوا زالت هذه الرهبة ، وارتفع الهمّ ، ونسي الناس أنفسهم وتشحّطهم ، وكأن شيئاً من هذا لم يكن . وينشغلون بالعمل الخطير الذي جاءوا من أجله ، ودخلوا فيه ، ووضعوا فيه كل تفكيرهم وقوتهم وامكاناتهم عملاً وواقعاً . ولا تجد من يفكر في نثر البول أو يتذكره ، فالناس في شغل عنه ، وكفى بالعرق نازحاً لما في الجسم من ماء ، حتى في



عنفوان الشتاء، والناس مشغولون بما هو أهم: محاورات ومناورات، وصدام وعراك، وعنف ومجالدة، وكرّ وفرّ، ومطاردة وملاحقة، وإقدام واحجام، وضرب واتقاء ضرب.

والشاعر القديم - يا بني - لم يكن بعيداً عن هذا الجو عندما قال:

وترى القروم مخافة لقرومنا
قبل اللقاء تقطّر الأبوالا[1]

أي بني!

هذه صورة من الصور التي لمعت في يوم من الأيام في خضم غبار معارك تلك الأيام، وهي معارك مهدت لتوحيد هذه المملكة على يد الملك عبد العزيز - رحمه الله - دعنا الآن نرسم لك صورة أخرى لحروب حدثت قبل هذه الفترة عندما كانت الأمور فوضى، كل قبيلة تغير على أخرى أو تحتمي

(١) المحاسن ٤٨٥.



بها أو تستعين ، لقد كان عوز هذه القبيلة مثلا يجعلها تغير على أخرى لتحسّن وضعها ، وترفع مستوى معيشتها ، وكانت قبيلة ثانية تزاحم ثالثة في مراعيها ، ورابعة تقوم الحرب بينها وبين أخرى بسبب ثأر لمقتل فرد ، وهي قد يفنى بسببها عشرات . وليس هناك قبيلة في مأمن ؛ المنتصرة اليوم قد تكون المهزومة غداً ، والقوية اليوم قد تصبح الضعيفة غداً ، والمجيرة اليوم قد تصبح المستجيرة في اليوم التالي ، وهكذا يقوى الضعيف ، ويضعف القوى ، وأناشيد السرور عند هؤلاء اليوم ، ونواح الحزن والمأتم عندهم في يوم آخر ، ورحى الحرب لا تقف عن الطحن ، لها ما يشبع نهمها من البشر ، ونارها لا يخبو لهبها ، ولها ضرام بالرؤوس والأعضاء .

وفي وسط كل ذلك كان هناك تقاليد وعادات لا يذهلون عنها ولا يغفلون ، تحكم أمورهم ويراعونها ، ويحرصون على بقائها حية قوية ، ولا يخلّون بها ؛ يعدونها أساساً لأخلاقهم في الحرب

والسلم.

إليك - يا بني - قصة طريفة تُري تلاقي العادات وتنافرها، وتعطيك صورة عما كان يحدث في تلك الحروب:

أغارت قبيلة على قبيلة، وأنتهت المعركة، وقام المنتصرون بتفتيش جيوب الموتى. قال الرواي: عندما قلبت جثة أحد الشبان النضرين، وبدأت أبحث في جيوبه وأفتشها، طلباً لما قد يكون فيها من مغنم، صعقت عندما وجدت في جيب القتيل صرتين صغيرتين احداهما هيل والأخرى شاور (دخان)، فجلست بجانبه أنوح عليه كما تنوح الثكلى على ابنها، على الرغم أنه من أعدائنا، وعلى الرغم من علمي بأنه لو كان وجد الفرصة لقتلي في المعركة لما تأخر عن ذلك، بل لبادر إليه وسعى، ولكني نسيت العداوة، عندما رأيت مكملات الرجولة متوافرة معه، ومتجمعة في جيبه «هيل



وشاور!» فأيقنت أن مثله يستحق أن يُحمى لا أن يقتل.

وقد لا تعرف - يا بني - أهمية هاتين المادتين آنذاك، ولكنك ستعرف ذلك عندما تعلم أن هاتين المادتين تعدان من متطلبات الكرم في ذلك الزمان، ومن يعرف الضيافة وأصولها عندهم يعرف ما عناه الرجل. إن أحدهم كان يأتي في الصحراء إلى مخيم هناك، فيستضيفه أصحابه، وقد لا يكون عندهم قهوة ولا هيل ولا شاور، فيذبحون له ما يسعفهم باللحم، ويخبزون له ما تهيأ، فيبادر الضيف بإخراج صرة فيها هيل وأخرى فيها شاور، وقد يكون صرها في طرف «غترته»، ويقدمها لمضيّفه فتقبل منه، لأنها أمور كمالية تكمل أنس المجموعة.

لقد انتشرت عادة التدخين - يا بني - في بادية الشام، ثم انحدرت منها إلى عرب وسط الجزيرة، وبقيت فيهم إلى أن تمكنت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - من إزالتها في محيط باديتنا، وبعد أن تأثر عربنا بهذه الدعوة تأثرا



كاملا . وقد تبين عند ظهور الدعوة أن شرب الدخان متمكن من عرب بوادينا ، فكان من الصعب عليهم التخلي عنه ، حتى بعد أن أصبح لهم هجر ووعاظ ومرشدون . وبقي بعضهم لفترة طويلة يخفي شربه للدخان . وكان «السبيل» أو «الغليون» هو الأداة المفضلة للتدخين عندهم ، ربما بسبب اقتدائهم بمن أخذوه منهم ، أو لعلهم وجدوه أوفر من السجائر ، وأنسب لحياة الترحال التي تحكم حياتهم .

أي بني !

في زمن مضى ، في بلدة والدك وأمثالها من المدن الصغيرة حينذاك كان عدد السكان قليلا ، ويكاد كل إنسان يعرف الآخر ، إن لم يكن بالاسم فبالرسم على الأقل ، وكان الغريب يلحظ منذ أن يدلف إلى السوق ، وتلتفت إليه الأنظار . وكانت هناك صور - يا بني - عرفها ذاك الزمن في تلك البلدان ، اختفت اليوم ، وانطمست آثارها مع ما انطمس من عادات كانت سائدة ، وأخلاق كانت

مسيطرة، ولم يبق منها إلا الذكر الحسن، والصورة الجميلة الباهتة من جراء مرور الزمن، ووطء أقدامه. ويحتفظ بها اليوم معاصروها، ويستدعونها من الذاكرة عندما تأتي المناسبة، ويجترونها مع ما يجترون مما يحبون أن يستعيدوه من ذكريات تعيد لهم صور شبابهم الماضي، وما كان لصاحبه من بهجة وأنس.

إذا ضاع لأحد شيء «شيّد» من ضاع له هذا الشيء عليه علنا، أي نادى عليه في الأسواق، وعند المساجد بعد الصلوات، وفي أماكن ازدحام الناس للبيع والشراء، فإذا كان المفقود عقداً أو صرة نقود يأتي فاقده على أثر النداء. وتختلف الضائعات، أو المفقودات، وتتراوح الأشياء بين الصغيرة الحجم مثل صرر النقود والأشياء الكبيرة الحجم مثل البقرة والشاة. وأحياناً لا يبين «المشيّد» أو المنادي ما عثر عليه، فإن جاء مجيب لندائه، فوصف له ما فقده وصفا دقيقاً أعطاه إياه. ولا يحرم عادة من وجده من «الحلاوة» أو المكافأة، نقداً أو غيره، وذلك حسب



كرم صاحب الشيء المفقود ومقدرته، وإلا «فجزاك الله خيراً» تكفي.

وقد لا يكون «المشيّد» أو المنادي هو الذي عثر على ما ضاع، لأنه ليس كل إنسان يسمح له مقامه أن يدور في الأسواق رافعاً عقيرته، ينادي عن ضالته، أو ضالة وجدها، حينئذ يوكل الأمر إلى شخص تعوّد على المناداة، وأتقن مثل هذا، فالدلالون غالباً هم خير من يقوم بهذه المهمة.

والعبارة التي كانت تقال، ويرفع بها الصوت في مدينة والدك - يا بني - هي: «يا من غدت له الذاهبة» وغدت - كما تعرف - أي ضاعت أو فقدت، والذاهبة أي الضائعة أو المفقودة. ولتسليتك وإبعاد الملل عنك، أقص عليك قصة رجل التقط شيئاً أضاعه آخر، واستفتى أحد العلماء في استحلاله، فأفتاه بأنه لا يحل له، وأن عليه أن ينادي عليه، وأن يكون ذلك بصوت عال، وفي أماكن مختلفة، حيث يوجد الناس ويتكاثرون. وكانت «الذاهبة» بقرة وجدها الرجل تجوب شوارع



المدينة ، فطمع فيها ، وأمّل ألا يأتيه صاحبها ، وألا يسمع نداءه . وكان رجلا مرحاً ، وصاحب دعابة ، ففكر كيف يحتال للأمر بأن يجمع بين المناداة وبين عرقلة نتيجتها ، وكيف ينادي بصوت عال ولا يسمعه مع ذلك أحد ، فاهتدى إلى الحل أن ينادي بصوت عال أول الجملة : «يا من غدت له» أما كلمة «البقرة» فيهمس بها . ولا أدري – يا بني – إن كان نجح في حيلته أو أخفق ، لكني أتصور أنه أخفق للأسباب الآتية :

١) أن البقرة ليست ابرة تضيع دون أن يحس صاحبها بفقدها ولا بد أنه تعب في البحث عنها ، ويكفي أن يسمع كلمة : «يا من» حتى يأتي مسرعاً ، مؤملا أن المناداة عن بقرته .

٢) أن صاحبها لا بد أنه سأل عنها أناسا كثيرين ، فإن هو لم يسمع النداء ، فلا بد أن أحداً منهم سمعه ، فبلّغه .

٣) النية – يا بني – لم تكن طيبة ، وما دامت كذلك فلا بد في نهاية المطاف – أن تحرم صاحبها المنادي



من ثمرة حيلته

على أي حال- يا بني - لم تكن المناداة- وهي أمر شرعي- تصيب معاصري جدك وأبيك وحدهم بهمّها وكربها فقد كانت أيضاً الشغل الشاغل لأشعب في زمن سابق حين حاول أن يحتال مثل واجد البقرة، وأن يستحلّ ما وجده. وكانت حيلته أعرق، وتفكيره أعمق، ولا أظن أحداً يمكن أن يخطر على باله ما خطر على بال أشعب.

قال الواقدي:

لقيت أشعب يوماً، فقال: «وجدت ديناراً، فكيف أصنع به؟» قلت: «تعرّفه». قال: «سبحان الله!» قلت: «فما الرأى؟» قال: «اشتري به قميصا، وأعرّفه» قلت: «إذًا لا يعرفه أحد». قال: «فذلك أريد».[1]

أي بني!

---

(١) أخبار الظراف ٨٥.

ومن الصور التي اختفت من مجتمعنا صورة نبيلة جميلة، قضى عليها تطور المجتمع عندما اتّسعت المدن وكبرت الأحياء، وتباعدت البيوت بعضها عن بعض بعد أن كانت متلاصقة في حي صغير له صفته المتميزة عن غيره من الأحياء الأخرى التي لها هي أيضاً ما يميزها من الصفات. وتكوين ذلك المجتمع وتركيبه جعله متكاملاً، لا تحدث فيه ثغرة، ولا يختل تكوينه، لمسارعة أهله إلى سد الخلل ومعالجة ما قد يأتي به الزمن من نقص، وكانت هناك من هذه الصور صورة اللمحة الأخوية بين الجيران بعضهم مع بعض مما يجعلهم يشعرون أنهم أسرة واحدة، فالغني كان يعطف على الفقير، ويتعهده فيما ينقصه أو يحتاج إليه، وكان يهب لنجدته عندما يطرأ طارئ، ويقف بجانبه عندما تلم كارثة. وكان الحاضر ينوب عن الغائب في رعاية أهله، وفي قضاء حاجاتهم. وكان هناك من الصور الجميلة في هذا ما كان يشاهد دائماً من تكاتف بين أفراد حي واحد. فإذا كان رب البيت



مسافراً ، أو من كان في البيت نساء فقط لا رجل لهن يقوم بقضاء حوائج البيت ، فإن ربة البيت تدلي زنبيلا من النافذة أو تضع وعاء على عتبة الباب ، وكانت هذه علامة واضحة ومتفق عليها ، فإذا رآها أي فرد في الحي فإنه يسارع إلى أخذها إلى السوق ، بعد أن يكون أستفسر ممن في البيت عما يريدونه . والأولى بمثل هذه الخدمة الجار الملاصق ، إلا أن هذه الخدمة النبيلة ليست وقفا على أحد ، وإنما يتسابق إلى شرف القيام بها أهل الحي جميعا ، وهم متساوون في محاولة أداء هذه الخدمة . وقد تضع المرأة النقود في الزنبيل أو الوعاء ، وقد لا تفعل فيبقى الثمن دينا حتى يعود الغائب . ولا يجرؤ أحد أن يتراخى في هذه الخدمة لا خوفا من أن ينبذ المتراخي من المجتمع فقط ، ولكن حذرا من أن يخل بنظام محمود كان يقوم عليه هذا المجتمع ، ويفتخر بصيانته وحفظه . وكانت هذه الصورة من الصور المعروفة في مكة المكرمة قبل أن تزحف على أحيائها وسائل المدنية الحديثة من اتساع في الأحياء وتباعد بين العائلات ، ومن كثرة الغرباء وتغير العادات



تبعاً لذلك ، وقد حل محلّ هذه الصورة تكافل من نوع مختلف يتماشى مع التطور الجديد .

والحثّ على رعـايـة الجـار أمـر متفق عليـه في المـجـتمعـات المتحضرة ، والإسلام كاد أن يورث الجـار[1] ، ومـا كنـا نراه في مجتمعاتنا الصغيرة كان إمتداداً لهذه التعـاليم الإسلامية ، والقصص التي تتحـدث عن المحـافـظة على حسن الجوار كثيرة ، والأدب الـعـربي مليء بهذه القصص ، ومن تلك القصص مما رواه صاحب العقـد الفريد وغيره في هذا الشأن :

« ذكروا أن جارا لأبي دلف ببغداد لزمه كبـير دين فادح حتى احتاج إلى بيع داره ، فساوموه بها ، فسألهم ألفي دينار ، فقالوا إن دارك تسـاوي خمس مئـة دينـار ، قال : وجـواري من أبي دلف بألف وخمس مئـة

(١) قال رسـول الله ﷺ : « مازال جبريـل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيـورثـه » . وقال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه « الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق » .



دينار ، فبلغ أبا دلف فأمر بقضاء دينه ، وقال له : لا تبع دارك ولا تنتقل من جوارنا »[1]

كان كل واحد من الاثنين أهلا لجاره ، هذا بتقديره لحسن جوار أبي دلف ، وأبو دلف بتقديره لإقرار جاره له بالفضل وتقويم هذا الجوار بما لم تبلغه قيمة الدار . وهذه لفتة فريدة لفتت نظر المؤرخين فدونوها .

ولم يكن الناس يستغنى بعضهم عن بعض ، وكانت تلك المجتمعات تدرك هذا وتقدّره ، ولهذا كان الفرد يحرص أن يكون مفيدا لمن حوله خاصة لمن احتاج ، لأنه يعرف أنه هو نفسه قد يحتاج إلى غيره ، ولهذا فهو يقدم المعروف اليوم دينا سوف يستوفيه غدا عند الحاجة . وأصبح الأمر الذي لدى الخيّر من الناس مع التعود والمواظبة على خدمة المحتاجين منهم طبعا يتلذذ به مُسْدي الخدمة دون

(١) العقد الفريد ١/ ٢٥٦ ، وخلاف هذا ما قاله أحد الشعراء :

يلومونني أن بعت بالرخص منزلي ... ولم يعرفوا جارا هناك ينغصّ
فقلت لهم كفّوا الملام فإنها ... بجيرانها تغلو الديار وترخص

بهجة المجالس ١/ ٢٩١ .



أن يتطلع إلى جزاء عنه أو شكور .

وقد أدركت ذلك مجتمعات صغيرة مثل مجتمعاتنا السابقة ، وتحدثت عنه ، وتذاكرت فيه :

قال رجل لابن عباس : «ادع الله أن يغنيني عن الناس ، فقال : إن حوائج الناس تتصل بعضها ببعض كاتصال الأعضاء فمتى يستغنى المرء عن بعض جوارحه ، ولكن قل : اغنني عن شرار الناس»[1] .

والخدمة التي يقدمها أهل الحي للمحتاج من الجيران تدخل ضمن ماروي أن النبي ﷺ امتدحه فقال : «سيد القوم خادمهم» .

والشاعر يقول :

كأنه عبد لاخوانه وليس فيه خلق العبد[2]

ويماثل الصورة التي كانت قائمة في تلك

---

(١) محاضرات الأدباء ٢٥٥ .

(٢) محاضرات الأدباء ٢٤٦ .



الأحياء، وماكان الرجل يقوم به نحو جيرانه في أن يأتي لهم بمؤونة مماثلة لمؤونة بيته ماروي في أزمان مضت من أن محمد بن على قال لآخرين:

«أيدخل أحدكم يده في كم أخيه فيأخذ حاجته؟ قالوا: لا، قال: فلستم إذًا بإخوان»

وأبو تمام يقول:

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا
من كان يألفهم في المنزل الخشن

وهذا باب واسع يؤكد ما يتصف به الإسلام من وجوب التآخي والتراحم والتعاطف، وهي صفة امتازت بها المجتمعات الإسلامية، وتعد من الأصول الثابتة في الخلق الإسلامي.

ومن باب الحث - يابني - على رعاية الجار ماروي عن مالك بن أنس يغمز فيه أهل زمانه ويقول فيه إن أهل الجاهلية كانوا أشد حدباً ورعاية للجار:

قال مالك بن أنس : قال أبو حازم : كان أهل الجاهلية أحسن جواراً منكم ، فإن قلتم : لا ، فبيننا وبينكم قول شاعرهم :

ناري ونار الجار واحدة
وإليه قبلي تنزل القدر
ما ضرّ جاراً لي أجاوره
ألا يكون لبيته ستر
أعمى إذا ما جارتي برزت
حتى يواري جارتي الخدْر[1]

ويبدو أن مالك بن أنس مهتم بهذا الجانب الخلقي اهتماما خاصا ، ويرى فيه مظهرا خلقيا حسنا يستحق أن يحث عليه ، ويدعى إليه ، لأنه رُوى عنه أيضاً أنه مرّ بقَيْنَة تُغني :

أنت أختي وأنت حرمة جاري
وحقيق عليّ حفظ الجوار

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس ١/ ٢٩٠ .

إنّ للجـــار إن تغـــيّب غـــيبا
حـافظا للمغـــيب والأســـرار
ما أبـالـي أكـان للبـاب ســـتر
مســـبل أم بقـــي بغـير ســـتار

فقال مالك : علموا أهليكم هذا ونحوه[1] .

وعلى هذا النحو يأتي قول بشار بن بشر المجاشعي :

وإنــي لعـفّ عن زيـارة جـارتي
وإنــي لمشـــنوء لدي اغتـــيابها
إذا غـاب عني بعـلها لم أكـن لها
زؤورا ولـم تأنـس إليّ كـلابهـا
ولـم أك طـلابا أحـاديث سـرّها
ولا عـالما من أي جنس ثيـابها[2]

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس ١/ ٢٩٠ .
(٢) بهجة المجالس وأنس المجالس ١/ ٢٩١ .



صور أخرى أختفت

أي بني !

كانت هناك صور واضحة في مجتمع أبيك وجدك ، تلحظ في كل يوم ، أو في كل أسبوع أو في كل شهر أو في كل سنة . وكانت هذه الصور تؤدِّي دوراً رئيساً في حياة الناس ، ولم يكن المجتمع يستغنى عنها ، نَمَتْ مع المجتمعات ، وتطورت بتطورها ، فأدّت لها أغراضها ، وسدت ثغرات ؛ تطلّبتها معيشة الناس حينئذ ، أو تبلورت عن حياتهم ، وتشكلت مع الزمن بطريقة طبيعية ، كل حقبة أضافت إليها ، أو شذّبتها . وقد تختلف هذه الصور من منطقة إلى أخرى حسب متطلبات المنطقة الجغرافية ، وتأثرها بما يجاورها ، أو بمن يفد إليها ، لغرض ديني ، أو تجاري ، أو هجرة ، أو استيطان ، أو حسب ماهي عليه من طبيعة جبلية أو صحراوية أو بحرية أو زراعية أو رعوية .

وسأحاول أن أرسم لك ما أتذكره منها مما لم يسبق لنا أن تكلمنا فيه معا ، وسوف لا أتكلم عن ذلك



بالترتيب ، أو أدخل أجزاء القول تحت تصنيف منتظم ، أو ترتيب متتال ، خوفا عليك أن تملّ ، ويضيق صدرك بما أقول ، وأنت تذكر ما اتّفقنا عليه ، منذ ابتدأنا هذه السلسلة من القول من الحرص على الابتعاد عن الاملال ؛ لهذا لن نخلّ بما سبق أن تعهدنا به ، والتزمناه فيه حتى الآن من أن حديثنا سوف يكون على نمط حديث المجالس يأتي عفواً ، ويجري سهلا ، خاصة وأنك- كما يبدو من اصغائك ، ومتابعتك الحديث ، ومشاركتك فيه أحيانا- قد حمدت هذا الأسلوب ، وارتضيته ، وفضلته على غيره ، ورضاك- يا بني- مهم في هذا الأمر ، لأن الهدف الأساسي أن تسمع وتستفيد ، فإذا نفّرناك بطريق أو بآخر ضاع الهدف ، وخاب السعي ، وتبدد الجهد .

أي بني !

من الصور التي اختفت ، والتي لا تراها الآن ، وكانت تُرى واضحة في الماضي ، صورة مبّسطة جميلة ، كانت تؤدي هدفها النبيل بيسر وسهولة ، وتتناسب مع طبائع الناس وأخلاقهم ، وصلاتهم بعضهم ببعض :



صورة القضـاء والقضـاة. لم يكن هنـاك محاكم- كما تعـرفها اليوم- بما فيها من موظفين للقيد والتسجيل، وكتـابـة الصكـوك، وحجـج الاستحكـام وتـوقيعهـا وختمهـا. ولم يكن هناك مرافعات ومحامون- كما ترى اليـوم في العـالم الإسلامي- وكان الأمر في أغلبه، في بلادك، عنـد التقاضي أشبه بالاستنصاح والاستفتاء، يصـلّي الخصمان مع القاضي في المسجد، فيقضي بينهما هنـاك، وقـد يخرجـان معـه، ويشرحان له قضيتهما، فيسمع من كل واحد منهما، ثم يتدبر الأمر، فإن كان مما لا بد من إنهائـه شرعاً أنهاه، وإن كان أقرب لأن يحل صلحاً أصلح بينهما.

والمحاكمة والمقاضاة والترافع لا تأخذ في الغالب من الوقت إلا قليلا، قد لا يزيد عن المدة التي يقطع فيها القـاضي الـطريق بين المسجـد وبيتـه، وأحياناً يجلس القاضي للخصمين في منتصف الطريق. وإذا استوجب الأمـر كتـابة وثيقة بما قضي به كتبها في المسجد، أو في حجرة ملحقة به، وعلى أي ورقة تكون في متناول يده، أو على ورقـة موجـودة مع أحـد المتقـاضـين. وأغلب



ما يكتب من القضايا هو ما يخص الممتلكات من زرع أو بيوت أو دكاكين أو مزارع أو وصايا .

وإذا احتاج أحد صوراً من تلك الوثائق في المستقبل ، أو عبثت يد الزمن بها ، كأن أكلتها الأرضة ، أو جاءها ماء ، أو بليت مع الوقت ، فما على من هي بيده إلا أن يذهب إلى طالب علم ، فينسخها له ، ويذكر الناسخ أنه نسخها من خط فلان ، فتعتبر المنسوخة مثل المنسوخ منها ، مستنداً وحجة .

والناس - يا بني - في ذلك الزمن كان يغلب عليهم الورع ، وخوف الله سبحانه وتعالى ؛ فهم لا يكذبون على القاضي ، ولا يدلّسون فيما يدلون به ، ويتحرجون فيما يقولون ، خوفاً من زيادة القول عن الحقيقة أو نقصه ، مما قد يضر بالخصم ، أو ينقص حقه ، فيأكلون بهذا في بطونهم ناراً ويصلون سعيراً . لذا تجد أحدهم يجعل الرجحان مع الخصم خوفاً من أن يلحق ذمته شيء ، وتجدهم يتبارون في هذا مما يجعل القاضي يحتار . ولعلك - يا بني - تذكر قصّة الذي اشترى «كورجة» طيق شاش ، و«الكورجة» فيها عشرون طاقة أو درجاً



من القماش ، فلما فتحها وجد فيها واحدة وعشرين طاقة ، فأعاد واحدة إلى البائع ، وقال : وجدت هذه زائدة على « الكورجة » ولا حقّ لي فيها ، فردّ عليه الآخر بأنها وردت عليه هكذا من بلادها ، وأن هذا رزق ساقه الله إليه ، ولو أرادها الله له لكانت من نصيبه ولم يبعها ، فرّد الآخر بقوله : أرأيت لو أنّي وجدتها ناقصة ، هل كنت ترفض أن تكملها لي ؟ فقال : لا ، لا أرفض . قال : فما دمت غارماً إذا نقصت ، فمن حقّك أن تكون غانما إذا زادت .

ولما لم يقتنع البائع بما قاله المشتري ، ولم يقبل المشتري ما قاله البائع ، اتفقا على أن يجعلا الأمر إلى القاضي ، طالبين منه ارشادهما إلى طريق منير في هذا الأمر ، راضيين مقدما بما سيحكم به ، وما يراه لهما في حيرتهما . ويقال إن القاضي وجد أنه خير للاثنين أن يكسبا في الآخرة بدلا من الدّنيا ، فاقترح عليهما أن يأخذ كل واحد منهما نصف « الطاقة » الدرج ، ويتصدق به .

أي بني !



هناك قصة مماثلة لهذه تماماً، لعلك لا تزال تذكرها، فقد سبق أن تحدثنا عنها في مناسبة أخرى غير مناسبة القضاء:

استدان شخص من آخر ستة جنيهات ذهباً، وبعد سنة أو أكثر جاء ليعيد المبلغ إلى صاحبه، شاكراً له تفضّله عليه واعطاءه هذا المبلغ دينا، قرضا حسنا، ففتح الدائن دفتره ليمحو قيد الجنيهات فيه، كما هي عادة التجار في ذلك الزمن: اثبات ومحو، إذ لم يكن هناك «سند» في الغالب لتوفر الثّقة بين الناس، وهم إن كتبوا شيئا فللبيان خوفا من النسيان أو الموت.

وجد التاجر أن المبلغ قد ضرب عليه ومحي من الدفتر، ممّا يدل على أنه سدّد، فقال للمدين إنّك سبق أن سدّدت ما عليك، لأنني قد ضربت عليه في دفتري وشطبته. فقال الآخر: إني على يقين أني لم أسدّده، وهذا ليس مبلغاً صغيراً فينسى، وليس عندي من الأموال ما يجعل هذا المبلغ شيئاً قليلا من كثير حتى يدخل في عرض

مالي فلا أدري به ، ولا أحس بدخوله ؛ فمالي محدود ومعروف وهذا المبلغ الذي يخصك ينام معي إذا نمت ، ويستيقظ إذا استيقظت ، ويأكل معي ويشرب ، ويمشي معي أينما سرت ، ويخايلني ظله أينما التفت ، هو في ناظري وأمام عيني غمضت أو فتحت ، يمشي معي أينما اتجهت ، ويجلس معي حيث جلست ، أذكره كلما بعت أو اشتريت ، وأعده وأرقبه ينمو رويدا نحو الوفاء والسداد . وكنت أتطلع إلى اليوم الذي أسدده لك فيه ، وأفي بحقك عليّ . وهذا هو يوم العيد الحقيقي عندي .

ولكن الآخر أصرّ على ما قاله ، وأعاد وكرّر أنه يعتمد في مثل هذا مما يخص السداد والوفاء على دفتره ، ولا يمكن أن يُدخل في ذمته ما ليس دليله واضحاً للعيان أمامه ، كوضوح الشمس في رابعة النهار ، وإلا فبأي وجه سيقف أمام الديّان في يوم الدين ، في يوم يجتمع فيه الخصوم وجها لوجه .



وحاول المدين أن يثنيه عن رأيه ، فقال له في آخر محاولة منه : عل غيري قد سدد لك ديناً ، وبدلا من أن تضرب على دينه ضربت على ديني ، وهذا سوف يجعلك تطلب منه أن يسدّد لك في المستقبل مرة أخرى ، ولهذا تعفيني أنا الذي لم يسبق لي أن سدّدت . فقال الدائن : «بل لعلّ أحدا عرف حالك ، وقدّر حاجتك ، ورحم ضعفك ، فسدّد عنك ، دون أن تعلم ، لأنه يريدك ألّا تعلم» .

ولما لم يتفقا ، أو يقتربا من نقطة يتلاقيان عندها ، اتفقا أن يعرضا الأمر على قاضِي بلدتهما ، ويستنيرا برأيه ، فلعلّه يدلّهما على مايريح بالهما ويقنعهما ، أو يكون هناك حكم شرعي يصدره لهما يسيران عليه . وقد اختلف الرواة فيما قاله لهما القاضي ، فهناك من يقول إنه أفتى أن يتقاسما المال صلحا وتسامحا . ومنهم من يقول إنه أشار عليهما بأن يقسماه مناصفة بينهما ، ثم يتصدق كل واحد منهما بقسمهِ ونصيبه . والله

أعلم- يا بني- بالحقيقة ، لأن هذا كان في الماضي ، وماكان في الماضي ولم يدوّنه النّاس أو يوثّقوه في حينه ، واعتمد في روايته على المشافهة وتسلسلها ، فهو عرضة للاختلاف بالزيادة أو النقص ، أو التعديل ، أو التحريف . ولهذا فمن الصعب الجزم بالحقيقة إلا في صورتها العامة وعلى كلّ فالغرض من القصة واضح ، ولا يقلل من أثره ما انتهى إليه الأمر .ومع هذا فيمكنك- إن أردت أن تعرف الشرع في هذه المسألة- أن تسأل أحد القضاة في زمننا ، لأن الأحكام لا تتغير في مثل هذه المسألة .

وإذا أخذنا زمنا غير هذا الزمن ، وقوماً غير هؤلاء القوم ، وتلمسنا كيف كان الناس مشددين في حقهم غير متساهلين ولا متسامحين ، لأن عنصرهم مختلف ، وبيئتهم مختلفة نجد قصة تمثل ذلك :

روى الأزدى :

اشترى رجل من رجل أرضاً ، فوجدها



صخرة ، فاختصما إلى كعب بن سوار القاضي ، فقال له القاضي : لو وجدت ذهبا أكنت تردها؟ قال : لا . قال : فهي لك .[1]

نعود - يا بني - إلى ما قلناه عن رقّة قلوب الناس في وقت مضى ، وقوة إيمانهم ، وصفاء دينهم ، وما يقدمونه بين أيديهم من خوف الله في جميع أمورهم . ولعله يعجبك ويفيدك أن تسمع وعظا قام به قاضٍ خيّر في بيئة قديمة خيّرة ، تشبه بيئة جدك ، وكيف أن هذا الوعظ قد ولج إلى القلوب ، وتوغّل في طياتها ، وتغلغل إلى سويدائها ، فهزّها ، وأثمر ثمرة يانعة طيبة ، لأنه بذرة خير زرعت في أرض خصبة بالإيمان والتقوى والخوف من الله تعالى ، فلا يحتاج المتخاصمون للعودة إلى جادّة الصواب أكثر من أن يذكّروا بالله - سبحانه وتعالى - وبيوم الحساب وأهواله . والواعظ هنا هو القاضي الأندلسي ، يحيى بن زيد النجيبي ؛ قال عنه المؤرخ «النّباهي» صاحب كتاب «تاريخ القضاة» :

---

(١) وكيع ١/ ٢٧٩ .



كان رسمه ، إذا اجتمع الناس عنده للحكومة ، بدأ بوعظهم وتذكيرهم فلا يزال يخوفهم الله- سبحانه وتعالى- ويحذرهم وبال الجدال بالباطل ، ومايلحق المبطل من سخط الله- عز وجل- وعقوبته ، ويمثل لهم مواقفهم بين يديه في القيامة . ثم يذكر مايلزم القاضي من الحساب ، ومايجب عليه من التحرى لإصابة الحق ، والاجتهاد لتخليص نفسه .

ثم يأخذ في النوح والبكاء على نفسه ، فيكون ذلك دأبه حتى لربما انصرف عنه أكثر المتخاصمين باكين وجلين ، قد تعاطوا الحق بينهم .

أي بني !

كان الناس في وقت مضى لاتغمض عينهم عن الآخرة ، ولا ينقطع تفكيرهم في ثواب الله ، لم تكن الدنيا أكبر همهم ، ولا يهمهم منها إلا تأمين الرزق الحلال ، وطلب السّتر من الله فيما يأتون أو يدعون . وعودوا

أنفسهم عليهـا ، لا يحيـدون ، ولا يزورّون. حرصوا على أداء الأمانات كاملة ، وحفظ الحقوق وافية ، وأداء الوعود تامة ، واتمام العهود غير منقوصة أو مخدوشة .

كانـوا يتسابقون إلى التّسامح والتّصافي والتّغاضي ، ويتنافسون على حبّ الخير . كانوا لا يقبلون أن يغلبوا في السباق في ميدان الخير ، ولا يرضون أن يبزّهم أحد في الظهور بالمظهر الذي يشرف مجتمعهم الصغير والكبير ، كانوا لا يرضون أن يسبقهم أحد فيما نذروا أنفسهم له ، ووقفوا حياتهم عليه .

أي بني !

القضـاء من أهم الـوظائف التي يحتاجها النّاس في حيــاتهم ومعيشتهم ؛ لأنـه صاحب الكلمـة الأخـيرة الفاصلة فيما يقوم بينهم من نزاع ، أو يحدث بينهم من شقـاق ، أو يطرأ على أذهـانهم من إشكـال أو ابهام . يتـــوقّف على حكم القـاضي مصـير أمـوال وأعـراض وأنفس ؛ ولهـذا استلزم الأمـر أن يكـون القاضي عالما بأمور الدين ، وبأحوال الناس ، وله صفات اشترط أن



تتـوافر فيه حتى يكون- بقدر الإمكان- في منأى عن الزلل، وبعيداً عن الخطأ. وحياة الأمم- يا بني- تزدهر بازدهـار القضـاء وعدل القضاة. والبلاد التي يضعف فيهـا القضـاء نتيجـة البعـد عن الحكم بالشريعة مآلها الأدبار والاضمحلال. ولتعرف مدى أهمية القضاء لدى بعض الحكـام- وهم من يهمهم ألا تضعف بلادهم- استمـع إلى نفثـة من صدر المأمون في لحظة حاجة إلى تعيين قضاة وحكام، يحكمون بين الناس بالعدل. قال:

«إن أهـم الأمـور كلهـا أمـور القضـاة والحكام، إذ كنا قد ألزمناهم النظر في الدماء والأموال والفروج والأحكام فوددت أني أجد مئة حاكم، وأني أجوع يوماً، وأشبع يوماً». [1]

أي بني!

بجـانب ما يجب أن يتـوافر في القاضي من قوة

---

(١) المحاسن والمساوىء ١٥٢.



الدين، وخوف الله، ومراقبته في الأحكام، يحتاج القاضي إلى نباهة فائقة، وإلى ذكاء حادّ، ليسبر غور الخصوم، ويعرف من ظاهرهم، وحركات جوارحهم، ما يدله على ما بداخل أنفسهم، وما يجيلونه في أفكارهم من محاولات للتضليل والتدليس. والتجربة وطولها وعمقها كل ذلك مفيد للقاضي مثلما هو مفيد للطبيب ونحوه، وكلما امتد الزمن بالقاضي، وعرك الحياة مع المتخاصمين ومرت عليه فئاتهم، بأنواع الحيل التي يلجؤون إليها، أصبح أقرب إلى الأمن من الزلل، وإلى الحكم العادل الخالي من الخطل. قال يحيى بن سعيد:

«ولّيت قضاء الكوفة، وأنا أرى أنه ليس على الأرض شيء من العلم إلا وقد سمعته؛ فأول مجلس جلست للقضاء اختصم إليّ رجلان ما سمعت فيه شيئاً» .[1]

---

(١) النباهي ١٠ .

وفي الإسلام قضاة مشهورون طبق ذكرهم الآفاق، عرفوا بالنباهة والذكاء والورع وتحرّى العدل؛ منهم من كانوا في الزمن القديم، ومنهم من كانوا في الزمن الحديث.

ولعلك تذكر - يا بني - قصة القاضي وكيع، وقد تخاصم عنده اثنان، ادعى أحدهما أنه أعطى الآخر مبلغاً من المال أنكره الآخر، فقال المدّعى إنه أعطاه إياه في موضع كذا وكذا، فقال القاضي للمدعي: «وما كان في ذلك الموضع» قال: «شجرة». قال القاضي: «قم واذهب إلى حيث الشجرة، فلعلك تجد أنك دفنته تحتها». فذهب الرجل، وأخذ القاضي ينجز شؤون المتخاصمين الآخرين عنده؛ وفجأة التفت إلى المنكر وقال له: «أترى صاحبك قد بلغ الموضع الذي أودعك فيه؟» قال: «لا». قال القاضي: «يا عدوّ الله، إنك لخائن» فأقرّ عنده، فحبسه حتى جاء صاحبه، ثم أمره

بدفع الوديعة .[1]

وهكذا ألهم الله القاضي هذه الحيلة التي كشف بها كذب الخصم . ومثل هذه القصة يروى عن أكثر من واحد من القضاة النابهين الذين سجلت لهم أخبار في كتب الأدب .

ومن القضاة الذين شهد لهم بالذكاء والفراسة ، والمقدرة على استدراج الخصم المنكر إلى الاعتراف بعد استخراج الأدلة منه ، القاضي إياس بن معاوية ، قاضي البصرة زمن عمر بن عبد العزيز :

«اختصم رجلان عند إياس في مطرف خز وأنبجاني ، وادّعى كل واحد منهما أنّ المطرف له ، وأنّ الأنبجاني لصاحبه . فدعا إياس بمشط وماء ، فبلّ رأس كل واحد منهما ، ثم قال لأحدهما : سرّح رأسك فسرّحه ؛ فخرج في المشط عفر المطرف ، وفي مشط الآخر عفر الأنبجاني . فقال :

---

(١) وكيع ١/ ٣٤٢ .
قارن هذا بما ورد في كتاب النصيحة قابو سنامه ص ١٦٦ .

«ياخبيث! الأنبجاني لك، فأقرّ. فدفع المطرف لصاحبه». [1]

ويكون عمل القاضي أحيانا في الإفتاء في أمور لم تجر بها العادة، وتأتي على سبيل الاختبار له، فيخرج القاضي بذكائه- بعد توفيق الله- من هذا الاختبار ناجحا فائزاً؛ قال رجل لإياس:

«هل ترى عليّ من بأس إن أكلت تمراً؟» قال: «لا». قال: «فهل ترى عليّ من بأس إن أكلت معه كيسوما؟» قال: «لا». قال: «فإن شربت عليهما ماءاً؟» قال: «جائز». قال: «فلم تحرّم السّكر؟. وإنما هو ماذكرت لك؟».

قال إياس:

«لو صببت عليك ماء هل كان يَضُرُّكَ؟» قال: «لا». قال: «فلو نثرت عليك تراباً؟ هل كان يضرك؟» قال: «لا». قال: «فإن

(١) نهاية الارب ٤/ ٢٤. راجع ماسيأتي ص ١٦٠.

أخذت ذلك فخلطته وعجنته ، وجعلت منه لبنة عظيمة ، فضربت بها رأسك ، هل كان يضرك؟» قال : «كنت تقتلني» . قال : «فهذا مثل ذاك» .[1]

ومن الأمور التي تساعد- يا بني- القضاة على كشف ما قد يكون الخصم أخفاه ، أو دلّس فيه ، الكذب الذي قد يلجأ إليه أحد المتنازعين ، ثم لا يلبث أن ينسى أنه كذب ، فيقول فيما بعد ما يخالف ما قاله أولا ، فيقع في فخ ساعد هو على نصبه لنفسه . والتواريخ ومقارنة بعضها ببعض ، والتثبت من علاقتها بالحوادث والوقائع ، تكشف في كثير من الأحيان ما قد يكون أدخل من تزوير ، وما قد تعمّد من تضليل .

ولهذا- يا بني- اشترط أن يكون من بين مؤهلات القاضي المهمّة ، في نظر بعض العلماء ، الفراسة : قال القاضي ببغداد ، إسماعيل بن

---

(١) نهاية الارب ٤/ ٢٤ .

إسحق : «من لم يكن له فراسة لم يكن له أن يلبي القضاء» .[1]

وقال الشيخ سليمان بن محمد بن عبدالله الحميضي ، القاضي في المحكمة المستعجلة الثانية ، بمكة المكرمة ، في كتابه : «رسالة مع القضاة»

«هذا ولبعض القضاة فراسات عجيبة ، يعرفون بها أحوال الاخصام ودوافع الخصومة بينهما ، ويعرفون المحق من الخصمين بثباته ، وتحرير دعواه ، واتزانه ومظهره الأدبي ، ويعرفون الخصم المبطل في دعواه بتضارب أقواله ، وفلتاته المتناقضة ، وتحويراته الملتوية ، وارتباك مفاهيمه» .[2]

أمور القضاء- يابني- متنوعة ومتشعبة ، ولها جوانب متعددة تستحق أن تستوعب ، ويطول البحث لو حاولنا حصر هذه الجوانب ، ولكن لعل

(١) النباهي ٥٣ ، ٣٠٢ .
(٢) رسالة مع القضاة ص ١١ .



من المناسب هنا أن نتحدث عن بساطة القضاء في زمن قريب مضى ، عندما كانت الحياة نفسها بسيطة في جميع جوانبها ، وبعيدة عن التعقيد الذي طرأ على حياة الناس ، نتحدث عنها عندما كانت المدن صغيرة ، لا يسكنها إلا أهلها ، وبعضهم يعرف بعضا ، وقضاتها يعرفون الناس معرفة تامة ، وقبل أن تصبح الحياة على ما هي عليه من سعة في رقعة المدن وانديـاح في مساحاتها ، وكثرة في الناس ، وتنوع في أصولهم وجنسياتهم ، مما جعل الجار لا يعرف جاره ، والقريب لا يرى قريبه إلا في المناسبات ؛ فالمدن اليوم - يا بني - اختلط سكانها بآخرين مواطنين ووافدين ، واستلزم الأمر أن يكون القضاء متناسبا مع ما تطورت إليه الحياة ، فأصبح للقضاء وزارة من أكبر الوزارات ، ولها محاكم متنوعة ومنتشرة في ربوع المملكة . وأصبح القضاة يعدّون بالآلاف ، لهم كليات تؤهلهم ، ولهم معاهد يتخصصون فيها ، وأصبحت المحاكم دوائر منظمة منسقة تضم عدداً من الموظفين حسب

كبر المحكمة أو صغرها، وحسب المحيط الذي تخدمه. وأصبح هناك كتّاب عدل، وديوان للمظالم، ولجان لفض المنازعات؛ ولهذا اختفت الصورة القديمة، وحل محلها أخرى لا تزال تسير في نموها وتطورها يوما بعد يوم. وهذا كله- يا بني- لأن الله هيأ لكل زمن ما يتناسب مع متطلباته، رأفة بعباده المؤمنين، ولطفاً بهم.

والتطور هذا ليس صفة زمننا هذا فحسب، وإنما حدث أيضاً ما يماثله عندما بدأت الدولة الإسلامية تنمو في عصرها الأول، بعد أن توسعت، ودخل ضمن سكان المدن سكان جدد، وفدوا بسبب كثرة الداخلين في الاسلام، وبسبب التنقل والاختلاف بين الفئات والأجناس والعناصر المختلفة. والذين عاصروا تلك الفترة يماثلون من عاصروا شبيهتها في زمن جدك، وقد أبدى أحد أولئك في حينه للقاضي شريح ملاحظة عن هذا التغيّر، واستغرب بعض ما اتخذه القاضي شريح من اجراء يتناسب مع اختلاف المجتمع وتغيّره، فقال



لشريح : «ما هذا الذي أحدثت يا أبا أمية؟» قال : «إن الناس قد أحدثوا وأحدثت» .[1]

وكما ترى وتعرف لقد رتبت الدولة- يا بني- للقضاة مرتبات وفق سلم خاص بهم ، يعدّ مميزا لهم عن غيرهم ، تقديراً منها للقضاء ، وتأكيداً لأهميته في حياة الناس ، وفيما يقع بينهم من تخاصم ونزاع . وجعلت القضاة فئات حسب علمهم ، ومدة خدمتهم ، وما كسبوه من خبرة ، وحجم المحكمة التي خدموا الناس فيها .

أما في الماضي ، على زمن جدك- يا بني- فكان القضاة في الغالب لهم وصايا أو أوقاف يُوصَى بها لهم أو توقف عليهم في أكثر الأحيان من محسنين قبل موتهم ، وقد تكون تمراً أو قمحاً ، أو سكناً يقيمون فيه . ولأن القاضي يكون في الغالب إمام المسجد الجامع في المدينة ، فإنه يستفيد مما قد يكون أوقف على المسجد من أهل الخير ، ومن «حويّط» فيه نخل

---

(١) وكيع ٢/٣١٨ .

ملاصق للمسجد، أو ملحق بإحدى المزارع، أو نخل معين في أحد البساتين. والقصة الطريفة الآتية قد تعطيك فكرة عن هذا الأمر في بعض جوانبه، وقد رواها لي أحد القضاة الفكهين:

علم أهل إحدى القرى أنه قد وصل إلى قرية مجاورة قاضٍ عين لمجموعة من القرى المتقاربة، فتواعد متخاصمون للذهاب إليه، فذهبوا ووصلوا قبل صلاة الظهر في وقت القيلولة فطرقوا بابه، فردّ عليهم من الداخل دون أن يفتح لهم، وقال: «قيلوا فإنّ الشياطين لا تقيل». قالوا: «من يأخذ مئة وخمسين وزنة تمر، ومئتى صاع من البر في السنة، فلا حق له أن يقيل». قال: «من أي قرية أنتم»؟ قالوا: «من القرية الفلانية». قال: «لقد ظننت ذلك، فكل أهلها عوج». قالوا: «وهل يأتيك إلا الأعوج»؟ يقصدون أن المتسامح يصلح مع خصمه، ولا يزعج القاضي. قال: «والزبدة»؟ «أي



ما نهاية هذا الجدال»؟ قالوا : «لا زبدة بدون خض» فاضطر إلى الخروج إليهم والفصل بينهم .

فانظر- يا بني- إلى بساطة القوم، وطريقة جدالهم ، وإلى اللغة والمنطق الذي تبادلوه مع القاضي ، وإلى موقفه منهم ومعرفته بطباعهم . لقد نزل إلى المستوى الذي ارتضوه لأنفسهم في النقاش ، وكان متسامحاً معهم ، على الرغم من حدّة النّقاش وجفافه ، ورضوا أن يحكم بينهم على الرغم مما بادروه به من خشونه في كلامهم ، واصرار على اقلاق راحته في هذا الوقت الضيق المزعج ، وعلى الرغم من عنف رده عليهم ، فلم يخشوا أن يتحامل عليهم بعد هذا كله ، وبسببه ، ولم يجل في خلدهم أنه سيتأثر في حكمه بما حدث من جدل .

وقد خرج إليهم في هذه القيلولة ، وجلس معهم في ظلّ «مجبّب» أي «سقيفة» ، أو «قبة» أو على حبس أمام باب بيته (والحبس جزء من اسطوانة عمود ، يوضع عند الباب من الخارج ، يستفيد منه

صاحب البيت، يصعد عليه، ليتمكن من فتح «المجرا» في أعلى الباب. و «المجرا» أداة لقفل الباب، يلج منها لسان ينفذ إلى الجدار، وفي اللسان فتحات صغيرة، وعندما يغلق اللسان تسقط فيه عيدان صغيرة معلقة، تقوم بقفل «المجرا»، فلا يفتح اللسان إلا بمفتاح خشبي، فيه عيدان صغيرة ناتئة، ترفع تلك الأعواد الساقطة في الفتحات، ويجر اللسان إلى الخارج، فينفتح الباب، و «المجرا» في الباب من الداخل، وفي الجدار فوق مستوى «المجرا» فتحة صغيرة، تدخل منها اليد إلى ما بعد المرفق، يستطيع من خلالها الفاتح أن يفتح الباب.

وهناك أداة أخرى، تسمى في بعض بلدان نجد «السّكرة» أو «السّكيكرة»، من التسكير وهو القفل أو الغلق، وهذه تكون في أعلى الثلث الأسفل من الباب، لا تصل إليها اليد من الخارج، وهي لاستعمال أهل البيت من الداخل، وهي بمثابة التأمين للباب من أن يفتحه أحد من الخارج إذا



أقفلت . ولا بد لمن يريد أن يدخل عند إغلاقها من أن يطرق البـاب ، حتى يفتـح له من بالـداخل . والسّكـرة ملازمة لباب النساء ، وهي تقفل ليلا . وبـاب «القهوة» وهو باب الرجال ، يقفل كذلك بالسّكرة إلا إذا خرج رب البيت للصلاة ، أو لدعوة لوقت محدود ، أو للمـرور بالسـوق ، فإنـه يقفل البـاب بالمجـرا ، حتى يتمكن من الـدخـول عند العـودة ، دون أن يزعـج أهـل البيت ، والمفتـاح مصنـوع من الخشب ، وهـو غير صغـير ، وحمله مزعج ، ولكن الناس تعودوا على حمله والصبر عليه للحاجة ولعدم وجود ما هو أنسب منه ، وأصغر) .

لعله من المناسب- يا بني- هنا أن نلقي ضوءاً على ما دعا هؤلاء الناس إلى ازعاجٍ القاضي في وقت القيلولـة ، دفـاعا عنهم ، وإنصافاً لهم ، إن هؤلاء الناس- يا بني- أهل كَدٍّ وكدح كما سبق أن صورت لك في حديث سابـق[1] . وهـم من قرى نجـد يعملون غالبـاً في مزارع تأخذ كل وقتهم . ولا بد

(١) انظر «أي بني» الجزء الرابع ١٦-١٨ .

أنهم قد انتهزوا الفرصة عندما أوضعت السواني[1] فهي الفرصة الوحيدة التي يجد فيها الفلاح وقتا يقضي فيه ما يلزمه. ولهذا ركبوا الصعب، وأقدموا على الإزعاج، وتحملوا سوء الظن فيهم، وما قد ينالهم من قول قاس، وعبارات لاذعة، كما رأيت.

ولعلهم أيضاً - يا بني - وهم ينطقون بالعتب على القاضي، وأخذه القمح والتمر، يشعرون بمرارة لدفعهم هذه الكمية لشخص قلّ ما يحتاجون إلى ما يأتي منه من مردود، فنادراً ما يحصل سوء تفاهم، ونادرا ما يحتاجون إلى فتوى. لهذا - ودون تحرّز - قفز إلى ذهنهم تذكيره بما يأخذه منهم دون عناء بينما هم يتعبون في سبيل الحصول على التّمر والقمح سواء عملوا لأنفسهم أو كان عملهم لغيرهم من التجار الذين استأجروهم للعمل.

ولعله من المناسب الآن أن نوغل بعيداً في

---

(١) هذا تعبير يعني أن دوابّ السّواني قد أخرجت من المنحاة، وطرح ما عليها من حبال وعدة وأريحت في وقت القيلولة، رحمة بها، وإبقاء عليها.



الزمن، فنرسم صورة للقضاء في الإسلام عند ظهوره:

القاضي الأول في الإسلام بالمعنى الواسع هو الرسول ﷺ، فقد كان هو المرشد الأول للمسلمين، وكان قضاؤه حكماً وإرشاداً والهدي الذي جاء به كان نوراً يسير المسلمون في ضوئه على الطريق المستقيم إلى الهدف السامي. ولما بدأ الإسلام ينتشر احتاج الناس في المناطق التي انضم أهلها للإسلام إلى من يرشدهم، ويقضي في أمور الخصومات والمنازعات بينهم، فأرسل الرسول ﷺ من يقوم بذلك، ومن أول من أرسل علي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل وأبا موسى الأشعرى- رضي الله عنهم- إلى اليمن، وأوصاهم بما يفعلون، ورسم لهم القواعد والأسس التي يتخذونها للحكم بين الناس، فكانت أحكامهم صائبة، وأصبحت فيما بعد قدوة يتأسّى بها.

وعندما جاء الخليفة الأول أبو بكر الصديق- رضي الله عنه- كان قاضيه في المدينة المنورة عمر بن

الخطاب - رضي الله عنه - فأول من قدم المدينة المنورة قاضيا في الإسلام، على ماحكاه ابن عبد البر، عمر بن الخطاب، ولاه أبو بكر الصديق، وقال له: «اقض بين الناس، فإنّي في شغل»[1].

ولم يكن الصحابة في ذلك الزمن - رضوان الله عليهم - يستغني بعضهم عن بعض في التشاور فيما يستجد، مما لم يسبق للرسول ﷺ أن أرشد إليه، أو هدى إلى الطريق الصحيح فيه. وكان علي - رضوان الله عليه - من أبرز من كان يُلجأ إليه في اعطاء المشورة، والخروج من المسائل الصعبة التي تجدّ. وقد عُرِف عنه من النباهة والفقه ماكان مضرب المثلَ، وما أصبح قاعدة يسار عليها، ونبراسا يُهتدَى به، وقاعدة تحتذى. وقد وُصِف بأنه أرسخ الصحابة في العلم بالقضاء - رضوان الله عليهم أجمعين - «وكان عمر بن الخطاب يتعوّذ من معضلة ليس فيها أبو حسن»[2].

(١) النباهي ٢٢.
(٢) النباهي ٢٣.



ثم تولى الخـلافة عمر بن الخطاب- رضي الله عنـه- واتّسعت رقعـة البلاد الإسلامية ، وأصبح لا بد من قضاة هنا وهناك ، في الأراضي المستجدّة ، التي هي في أشد الحاجة إلى مرشدين وقضاة وحكّام يحكمون بين الناس . وكان من أبرز قضاة عمر- رضي الله عنـه- في البصرة والكـوفـة- وهمـا أكبر حواضر المسلمـين وقـواعدهم للانطلاق شرقا من أجل الفتوح- من الأكابر منهم شريح وعبد الله بن مسعود، وأبو موسى الأشعرى. والحسن البصرى[1] .

واستمر هؤلاء القضاة وأمثالهم حتى أفضى الأمر إلى معاوية ، فجرى بجهده على سنن من تقدمه من ملاحظة القضاة ، وبقي الأمر كذلك أيام الأمويين زمنا ، ثم فتر أيام يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد ، إلى أن ظهر بنـو العباس ، فاعتنوا بأمر القضاء ، وتخيروا للأعمال الشرعية صدور العلماء[2] .

---

(١) النبـاهـي ٢٢ .

(٢) النبـاهـي ٢٤٠ .

أيُّ

ثم أصبح القضاة في كل مكان في المدينة المنورة، ومكة المكرمة، ومصر وفي العراق كالبصرة والكوفة وبغداد والجزيرة. وفي الشام تعدد القضاة أيضاً، وفي مصر كذلك. ويطول بنا الأمر لو عدّدناهم، ولكنّ الذين اشتهروا منهم طبّق ذكرهم الآفاق، وتحدث عنهم الكتّاب لعلمهم ونباهتهم، وما اشتهروا به من أحكام بنيت على فقه وفطنة ونباهة ويقظة، حتى قال إياس بن معاوية، وهو أحدهم، بحقّ عن نفسه: «لست بخبّ، والخبّ لا يخدعني»(١) وهي صفة سبق أن وُصِف بها عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -.

ومن أشهر القضاة النبهاء في الإسلام: إياس ابن معاوية، وشريح بن عبد الله الكندى، وعبد الله ابن شبرمة، والقاضي عياض، وسوار بن عبد الله ابن قدامة العنبرى، ومسروق بن الأجدع، وعدي ابن أرطأة، والشعبي، وشريك بن عبد الله النخعي.

---

(١) وكيع ١/ ٣٤٨.



وكبرت المدن - يابني - مع انتشار الإسلام، واتسع نطاقها، وزاد سكانها وتعددت فئاتهم، واختلفت أجناسهم، فاحتاجت المدينة الواحدة إلى أكثر من قاضٍ واحد، وتطور الأمر حتى وصل إلى أن أصبح قاضيان يقضيان في مسجد واحد؛ فكان محمد بن عبد الله بن علاثه الكلابي وعافية بن يزيد الأودي يقضيان في المسجد الجامع بالرصافة، هذا في أدناه، وهذا في أقصاه[1].

أما القرى فلم يكن فيها قضاة في أول الأمر، لقلة السكان، وقلة الخصومات بين الناس، وما يسود بين الناس من روح الأسرة الواحدة والقبيلة الواحدة، مما جعل البعد عن التنازع أقرب إلى طبيعتهم، والصلح أدنى إلى نفوسهم؛ ولهذا كان يكفي في المناطق الريفية والصحراوية وقراها قاضٍ واحد، فاليمامة مثلا - وهي في منأى عن دار الخلافة - كان لها قاضٍ واحد يرسل من بغداد عندما أصبحت دار الخلافة هناك.

---

(١) وكيع ٣/ ٢٥١.



أي بني !

بدأت أمور القضاة يسيرة سهلة ، فكان القاضي حينذاك يقضي بين الناس في المسجد ، وقد عرف ذلك عن عدد من القضاة ، أحدهم ثمامة بن عبد الله ابن أنس[١] ، وشريح كان يقضي في المسجد[٢] ، والشعبى مثلهما[٣] ، وكذلك محارب بن دثار ، قاضي الكوفة[٤] ، وأبا بكر بن حزم[٥] ، ويحيى بن يعمر[٦] وكانوا أحيانا يقضون في حجرة في المسجد ، فعل ذلك ابن عوف القاضي[٧] أو في باحة المسجد أو خارجه كما عرف ذلك عن الحسن البصري ، في زمن عمر بن عبد العزيز[٨] ، وكان ابن أوفى يقضي في الرحبة خارج المسجد[٩] .

---

(١) وكيع ٢/ ٢٢ .
(٢) وكيع ٢/ ٢٢٠ .
(٣) وكيع ٢/ ٤٢٧ .
(٤) وكيع ٣/ ٣١ ، ٣٦ .
(٥) وكيع ١/ ١٤٥ .
(٦) وكيع ٣/ ٣٠٦ .
(٧) وكيع ٣/ ٣١ .
(٨) وكيع ٢/ ١٤ .
(٩) وكيع ١/ ٢٩٦ .



وكان بعضهم يقضي وهو في طريقه إلى المسجد، وقد يعدل عن طريقه فيجلس عند أحد البائعين فيقضي لمستقضٍ كما حدث في مصر للقاضي غوث ابن سليمان، وروي أنه:

قدمت امرأة من الريف، وغوث بن سليمان في محفة، فوافته عند السرّاجين، فشكت إليه أمرها، وأخبرته بحاجتها، فنزل عن دابته في حوانيت السرّاجين ولم يبلغ المسجد، وكتب لها بحاجتها، وركب إلى المسجد، فانصرفت المرأة وهي تقول: «أصابت والله أمك حين سمّتك غوثا. أنت غوث عند اسمك»[1].

ورؤي عبد الله بن بريدة القاضي يطوف القرى على حمار، يقضي بين الناس[2] ورؤي أيضاً إياس بن معاوية يقضي في الطريق. وكان يحيى بن يعمر يقضي في السوق

(١) وكيع ٣/ ٢٣٧.
(٢) وكيع ٣/ ٣٠٦.

راكبا[1]. وأبو عثمان عمرو بن سالم يقضي على باب داره[2]. ورؤي يحيى بن يعمر يقضي بين الخصوم في مجلس قضائه، وإذا قام عنه قضى بين الناس ماشيا وراكبا وفي منزله[3].

ولعل العقل الراجح الذي كان القضاة يتصفون به، هو الذي أوحى لهم بهذا، فالقاضي إن لم ينجز المتقاضيين الآن فسوف يتجمع الحمل عليه فيما بعد، ويلحقه الإثم للتأخير، فالأولى أن ينهي أمرهم الآن، لكي يكون لديه الوقت في مجلس القضاء لغيرهم[4]، وبهذا يتفادى الإثم ويكسب الأجر. إن تقواهم وورعهم قد حملهم على فعل هذا، بالإضافة إلى العقل الذي يقتضي - يا بني - أن يكسب المرء لا أن يخسر، خاصة إذا كان في الأمر ما يتصل بالآخرة.

---

(١) وكيع ٣/ ٣٠٦.
(٢) وكيع ٣/ ٣٠٧.
(٣) وكيع ٣/ ٣٠٥.
(٤) وكيع ١/ ٣٣٣.



ومما يروى أن شريحا قال : إذا رأيتموني أقضي في داري فانكروا عقلي ، إلا أن ابن المختار قال إنه رآه بعد ذلك يقضي في داره[١] .

ولعل شريحا قال ذلك حكما على الحال قبل أن يمارسها ، فلما مارسها وجد أن التطبيق يتطلب غير ما تتطلبه النظرة الأولى الخالية من التجربة .

وروي أيضاً أن عباس بن ميمون قال عن القاضي بالبصرة عيسى : إنه كان منعّماً ، يحكم في منزله بالبصرة ، وهو على فرش طبري ، متساند إلى وسائد طبري ، وعليه قميص ورداء قصب ، وبين يديه ريحان[٢] .

إن هذه الصور المختلفة التي رويت عن بعض القضاة في المشرق إنما اختلفت لاختلاف وجهة نظرهم تبعا لظروف مجتمعاتهم ، ولم تكن مجالس القضاة في الأندلس بعيدة عن هذا أيضا .

---

(١) وكيع ٢/ ٢٥ .
(٢) وكيع ٢/ ١٧٢ .

فمن صور القضاء في الأندلس صورة تدل على بساطة الأمر في نظر أحد القضاة، تبعا لبساطة الحالة المعيشية التي كان يعيشها القاضي، ولبساطة الناس الذين كان يخدمهم :

كان القاضي إبراهيم بن العباس القرشي، أحد قضاة قرطبة يجلس يقضي في بيته بين الناس، وخادمة له تنسج في ناحية البيت[1] .

وهناك صورة مختلفة تماما عن الصورة السابقة التي اتسمت بالبساطة والتسامح، فهذه صورة اتسمت بالحزم والاصرار على اتباع تنظيم فيه إضفاء هيبة على القضاء ورجاله، ولعل هذا أتى انعكاسا لما كان عليه المجتمع في زمن أحمد بن زياد اللخمي صاحب هذه القصة :

كان أحد قضاة الأندلس، شديد التهيب في قضائه، لا يخاطب في شيء من أمر الخصوم إلا في مجلس نظره، ولا يأذن لأحد يلقاه في طريق في

(١) قضاة قرطبة ١٤٧ .



مواكبتـــه ، ولا أن ينصرف معـــه ، ومن ألـحّ فيـما لا ينبغي من ذلك أمر بحبسه[1] .

ومثل هذا القاضي في الحرص على المحافظة على اجـراءات التقـاضي القـاضي الأندلسي عمرو بن عبد الله بن ليث الملقب بالقُبَّعة[2] :

يذكـر محمـد بن مسور أنه توجه ذات يوم إلى القاضي عمرو ، وذلك قبل الظهر . قال : فوجدت الناس ينتظرون خروجه إلى المسجد ، فخرج وبين يديه رجل يحمل خريطته بكتب ، وشيخ يمشي إلى جانبه ، فإذا همّ رجل أن يدنو من القاضي ليكلّمه في مسيرهِ إلى المسجد دفعه عنه ، قال : اذهب حتى يجلس القاضي في مجلس القضاء[3] .

وعن صورة متكـاملة لبعض إجراءات القضاء فيما روي عن القاضي محمد بن بشير المعافري أحد قضاة قرطبة :

---

(1) قضـاة قرطبـة ١٤٢ .
(2) القُبَّعَة ، طوير أصغر من العصفور .
(3) قضـاة قرطـبة ١٤٨ .



أنه كان يقضي في سقيفة معلقة بقبلي مسجد أبي عثمان، وكانت داره في الدرب الذي بقبلي المسجد، وكان إذا قعد للقضاء جلس وحده، لا يجلس معه أحد، وخريطته بين يديه، ويتولى أكثر الكتاب (كذا) بيده، فيتقدم الخصوم على كثب، فيقف الخصمان على أقدامهما، فيدليان بحجتهما، ثم يفصل بينهما.

وكان يقعد لسماع الخصومة من غدوة إلى قبل الظهر بساعة، ثم يقعد بعد صلاة الظهر إلى العصر، لا يكون نظره غير السماع من البينات، ولا يسمع من بينة في غير ذلك الوقت، وكان لا يخاليه أحد في مجلس نظره ولا في داره، ولا يقرأ كتابا لأحد في سبب من أسباب الخصومة[1].

أما الأحكام - يا بني - فكانت تنفذ - كما يبدو - في الأماكن التي تتناسب مع طبيعتها: في الباحات

(١) قضاة قرطبة ٧٦-٧٧.

أو في الأسواق ، أو على طريق المدينة ، يحدد ذلك نوع الحكم ، ومقتضياته من تأديب أو تشهير . ولقد روي من أمور التأديب ، وتنفيذ الأحكام وأماكنها ، ما يوجب الالتفات ، بل التعجب أحيانا :

قيل إن الشعبي كان يقضي في حجرة المسجد ، فأتاه نصراني ومسلم وقد تقاذفا ، فأمر بالنصراني فجلد على ثيابه الحد في المسجد[1] . ورَوَى القاضي ابن شبرمة أنه رأى الشعبي أقام على رجل الحد في المسجد[2] . ورُؤي أبو ليلى يضرب الحدود في المساجد[3] .

أي بني !

لقد كان الأصل في نظر ولاة المسلمين ألا يأخذ القاضي أجراً على عمله ، إكتفاء بما يتوقع له من الأجر العظيم في الآخرة ، وذلك على الرغم مما

---

(١) وكيع ٢/ ٤٢٨ .
(٢) وكيع ٢/ ٤١٥ .
(٣) وكيع ٣/ ١٣٥ .

يشعر به القاضي في العادة من خوف الزلل أو الحيف أو التعرض لما يجعله أحد القاضيين اللذين في النار . وقد نوّه النباهي[1] بخطورة القضاء حين فصّل الكلام في حديث الرسول ﷺ : «الحكام ثلاثة : إثنان في النار وواحد في الجنة ؛ حَكَمٌ حَكَمَ بجهلٍ فَخَسِر فأهلك أموال الناس وأهلك نفسه ففي النار ، وحَكَمٌ حَكَمَ ، فخذَل - أي جار - فأهلك أموال الناس وأهلك نفسه ففي النار ، وحَكَمٌ عَلِمَ ، فعدل فأحرز أموال الناس وأحرز نفسه ففي الجنة» .

ومما يدل على عدم أخذ أجر على القضاء بين الناس ما رُوي عن سفيان أنه قال : «قرأت كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى : لا تستقضين إلا ذا مال وذا حسب ، فإن ذا المال لا يرغب في أموال الناس وإن ذا الحسب لا يخشى العواقب بين الناس»[2] .

---

(١) النباهي ص ٩ .

(٢) وكيع ١/ ٧٦ .



وعمـــر يعـــرف مدى ضعف النفس البشريـة المحتاجة إلى المال ، ومدى ضعف مقاومة المرء له ، كما يعرف مدى أهمية الحسب في ذلك المجتمع مما يجعل صاحبه في منعة من الخوف .

وربما كان المال أحد أهم ما يؤدي إلى الشبهة في القـاضي من أهـل الشكوك ، لذلك نجد القاضي الأندلسي محمد بن يبقى بن ذرب قد احتاط للأمر فقد روي عنه أنه :

لما ولي القضاء احتبس خواص أصحابه المشاورين ، وقد جاؤوه مهنئين ، فأمر غلامه فكشف عن مال عظيم صامت في صندوق له وقال : «يا أصحابنا قد عرفتم ما نحن به من تولّي القضاء قديما عن سوء الظن وأخشى أن أطلق النـاس على غرضي ، وهذا حاصلي ، وفيـه من العـين كذا ، وفي مخازني ما بقي بقيمته ، وحظّي من التجارة ما علمتم ، فإن فشى من مالي ما يناسب هذا فلا لوم ، وإن

تباعد عن ذلك فقد وجب مقتي ، وأسأل الله تخليصي مما تنشّبت فيه»[1] .

والقاضي الأندلسي ، قاضي مالقه ، محمد بن الحسن الجذامي النباهي ، محافظة منه على مصدر ثروته التي يريد أن يعتمد عليها ، بعيداً عن أجر القضاء ، اشترط عندما أجبر على تولي القضاء من قبل الأمير يحيى من جملة ما اشترط ، أن ينفرد يومين من كل جمعة برسم تفقد أملاكه والنظر في مصالح نفسه الخاصة به[2] .

ومثل ذلك فعل القاضي الأندلسي المصعب بن عمران الهمداني الذي اشترط على الأمير هشام ، إذا قبل منه القضاء ، أن يأذن له في اطلاع ضيعته كل يوم سبت ويوم أحد ، فرضي له بذلك[3] .

ثم تطورت الأمور ، وسارت الأيام ، فجاء وقت

(١) النباهي ٧٧ .
(٢) النباهي ٩٠ .
(٣) قضاة قرطبة ٦٩ .



أصبح لا مفرّ معه من تعيين رَزَقٍ يعيش منه القاضي، أو مرتب، أو هما معا، وتفاوتت أمور القضاة في هذا وما ورد عن هذا في الكتب التي وصلتنا نجد صوراً في التفاوت في هذا بين القضاة، وهذا حسب زمنهم وتقاهم وحالتهم الاجتماعية، فمن الذين رُوي أنهم كانوا لا يأخذون شيئاً الحسن ابن أبي الحسن البصرى فهو لم يكن يأخذ أجراً قط، بل لقد رُوي عنه أنه كان يكره ذلك[1]. ويُذكر أيضاً أن القاضي الأندلسي محمد بن الحسن النباهي لم يكن يأخذ على القضاء رزقاً من بيت المال مدة حياته[2]، ومثله القاضي بافريقيا عبد السلام بن سعيد، الملقب بسحنون، فهو لم يأخذ لنفسه مدة قضائه من السلطان شيئاً[3]. وكذلك زرعة ابن أيوب المعري الذي لم يكن يأخذ على القضاء رزقا[4].

---

(١) وكيع ٢/ ٨، ١١.
(٢) النباهي ٩٢.
(٣) النباهي ٣٠.
(٤) وكيع ٣/ ٢٠٢.

ولكن بعض القضاة كان يأخذ رَزَقاً معينا محدوداً أو لعله مرتباً، ومن أشهر هؤلاء القاضي سوار بن عبد الله الذي رُوي أنه كان يأخذ مئتى درهم[1]، وذكر الشعبي أن شريحا كان يأخذ على القضاء مئة درهم كل شهر ويقول: «أستوفي منهم، وأوفيهم»[2]. ثم إن ماكان يأخذه شريح على القضاء تدرّج حتى أصبح خمس مئة درهم في كل شهر[3].

وكان رَزَق إياس بن معاوية على القضاء مئة درهم[4]. أما ابن أبي ليلى القاضي فكان يتقاضى مئة وخمسين درهما في كل شهر[5]، وقيل إنه كان يتقاضى مئتى درهم[6]. وقال مالك بن أنس أن عمر بن عبد العزيز لما قدم المدينة المنورة أمر رجلا بأن يقضي

(١) وكيع ٢/ ٨٦.
(٢) وكيع ٢/ ٢٢٧.
(٣) وكيع ٢/ ٢٢٧.
(٤) وكيع ١/ ٣٤٢.
(٥) وكيع ٣/ ١٣٠.
(٦) وكيع ٣/ ١٣٠.



بين النـاس ، وأجـرى له في الشهـر دينـارين[1] ، وعندما ولي أبو لهيعة القضاء لأبي جعفر أجرى عليه ثلاثون ديناراً[2] .

وهنــاك صور- يابني- تستحق أن تفـرد عن غيرهـا بالـذكر ، لما تكشف عنه النصوص القليلة الدالة عليها مما يتصل بالقاضي وأجره وهي صور تدل على مجمـل الـدخـل الـذي كان يحصل عليه القاضي أحياناً في فترة من الفترات : رُوي أن ابن حجيرة كان مع عبدالعزيز بن مروان على القضاء والقصص وبيت المال ؛ فكان يأخذ رزقه في القضاء مئتى دينـار ، وفي القصص مئتى دينار ، وفي بيت المال مئتى دينار ، وجائزة مئتى دينار ، وعطارة مئتى دينار ؛ فكان يأخذ في السنة ألف دينار[3] .

ولم تكن النصوص تقتصر دائما على ذكر ما يأخذه القـاضي ، وإنما كانت تتعدى ذلك أحيانا إلى ذكر

---

(1) وكيـع ١/ ١٣٤ .
(2) وكيـع ٣/ ٢٣٥ .
(3) وكيـع ٣/ ٢٢٥ .



ماكان يأخذه من يعملون معه من أعوانه . وفي النص الآتي ترى- يابني- أنه كان إلى جانب القاضي من العاملين من يقبض راتبا ، وهو أمر يستغرب آنذاك ، ولقد أصبح هؤلاء العاملين فيما بعد نواة التنظيم الذي تطور إليه عمل القاضي بمرور الزمن ، ومما رُوي في هذا الصدد الآتي :

كانت أرزاق أبي شيبة في كل شهر مئة وخمسين درهما ، ثلاثين منها للكتابة وأعوانه ، ثم صارت ثلاث مئة ، ثم صارت أربع مئة وثمانين[1] وقيل إن سواراً كان أول من اتخذ الأمناء ، وأجرى عليهم الأرزاق ، وطوّل السجلات[2] .

ويكشف ما يأخذه القضاة من رَزَق أو أجر عن مدى الورع والعفّه عند بعضهم وعما كانوا يشعرون به- يابني- تجاه عملهم وما يترتب عليه من أجر فهذا القاضي الأندلسي محمد بن بشير المعافرى

(١) وكيع ٣/ ٣١٠ .
(٢) وكيع ٢/ ٥٨ .



اشـترط عند تعيينه قاضيا أن يكون رَزَقه من المال الفيء[1] . وعندما دُعى أبو خزيمة للقضاء وأجْرى عليه في كل شهر عشرة دنانير كان لا يأخذ عن يوم الجمعة رَزَقاً ويقول : إنما أنا أجير المسلمين فإذا لم أعمل لهم لم آخذ متاعهم[2] .

هنا- يا بني- يحسن أن نقف لنتأمل فائدة أتت في النص السـابق عرضـاً . فنحن مثـل الصياد الذي خرج ليصطاد نوعاً معيناً من الطير فعرض له طير من نوع آخــر ، ففـرح به وصـاده ثم ضمّـه إلى ما بحوزته من الصيد ، لما وجده فيه من فائدة لم يكن يخطر على بالـه أنـه سيجـدها . إنك- يا بني- لو سئلت هل كان الأمويون والعباسيون يأخذون يوما من أيام الأسبوع أجازة؟ وإذا كان الأمر كذلك فأي يوم كان ذلك اليوم؟ إنه لو وُجِّه لك هذان السؤلان لاحــترت في الإجــابـة حيرة لا يلبث هذا النص الواضح أن يزيلها حتى يؤكد أنه كان عندهم يوم

(١) النباهـي ٤٨ .
(٢) وكيـع ٣/ ٣٣٣ .

إجازة، وأنه كان يوم الجمعة. لقد أكد ذلك قطعاً وأزال عنك الشك ومنك الحيرة، ما روي من أن أبا خزيمة هذا القاضي التّقي الورع لم يكن يأخذ عن يوم الجمعة أجراً لأنه لم يكن يعمل فيه.

ومن هذا القبيل يُروى خبر يبين مدى تحرج القاضي مُعاذ بن مُعاذ فيما يأخذه، ففي يوم مطير قال لابنه: أي بني! امضِ بنا نجلس للناس. فقال له ابنه: يا أبت هذا يومٌ مطير لا يجيء فيه النّاس. فقال: يا بنيّ، إمض بنا، فيم نستحل أن نأخذ كل يوم كذا وكذا درهما؟ وخرج وجلس[1].

أما القاضي نصر بن ظريف اليحصبي الأندلسي، فقد كان من أمرِ زهده وورعه أنه إذا شغل عن القضاء يوما واحداً لم يأخذ لذلك اليوم أجراً[2].

وكان عمر بن شراحيل ومعاوية بن صالح من قضاة الأندلس إذا عاق أيّا منهما شغل في يوم من

---

(١) وكيع ٢/ ١٣٨.
(٢) النباهي ٤٤.

الأيام لم يقبض عنه ذلك اليوم رزقاً[1].

ويروى أن القاضي سليمان بن أسود الغافقي ذهب لما عزل عن قضاء «ماردة» إلى قصر الحاكم، وقال: «إن بيدي مالاً تجمع من أرزاقي وجب عليّ صرفه لبيت المال، وهو مما حاسبت نفسي فيه من أيام الجمع، وأوقات الاشغال، والأحيان التي وجبت عليّ النظر فيها ولم أنظر»[2].

أي بني!

من الأمور التي قد تهمك مما يتصل بالقضاء، اختيار القاضي، وعرض منصب القضاء عليه، ورفضه، ثم إجباره، أو قبول عذره، أو فراره من هذا المنصب بحيلة، يروى أن هارون الرشيد أراد:

أن يولي بعض القضاة، ومن بينهم وكيع، فكلٌّ قدم عذراً، فابن إدريس قال:

(١) قضاة قرطبة ٦١.
(٢) قضاة قرطبة ١٥٦.

السلام عليكم، وطرح نفسه كأنه مفلوج. فقال هارون: «خذوا بيد الشيخ لا فضل في هذا». أما عذر وكيع فإنه احتال بحيلة نجحت إذ قال ردّا على هارون عندما قال له: «تلي القضاء» قال: يا أمير المؤمنين- وأشار بسبابته إلى عينه- ما أبصرت بها منذ سنة». فظن هارون أنه يعني عينه، وإنما عَنَى وكيع سبابته[1].

ونقل عن عثمان بن عفان أنه قال لعبد الله ابن عمر بن الخطاب: «اقض بين الناس». قال: «لا أقضي بين رجلين ما بقيت». قال: «لتفعلنّ». قال: «لا أفعلن». قال: «فإن أباك كان يقضي». قال: «كان أبي أعلم مني، وأتقى»[2].

ولم يكن الأمر يقف دائما- يا بني- عند العرض والاعتذار أو اللجوء إلى حيلة، أو قبول ما ظهر

(١) وكيع ٣/ ١٨٤.
(٢) النباهي ١١.



للحاكم من عذر ولكنه كان يتعدى أحيانا إلى المحنة والأذى ، يصيب المرشح للقضاء منهما شيء كثير نتيجة تأبّيه عن قبول منصب القضاء الذي يراه الحاكم فرض كفاية ، وذلك حين كان الحاكم لا يجد من هو أولى به من شخص بعينه . فهناك من المرشحين من تعرض للسجن والضرب نتيجة تمسكه برأيه في الرفض ، يقول النباهي :

«لما تقرر من بلاء القضاء فرّ عنه كثير من الفضلاء وتغيبوا حتى تركوا ، وسجن بسببه عند الامتناع آخرون منهم أبو حنيفة وهو النعمان بن ثابت ، دعاه عمر بن هبيره للقضاء فأبى فحبسه ، وضربه أياما ، كل يوم عشرة أسواط ، وهو متماد على إبايته إلى أن تركه»[1] .

أي بني !

تكشف بعض القصص جوانب نفسية تعتمل

(١) النباهي ١١ .

داخل القاضي أحيانا وتدلّ عليها بعض تصرفاته ، فهـو يرفض القضـاء ويبتعـد عنه ابتعاده عن حية تقترب منه ، ويجفل منه اجفال من رأى سبعا مقبلا نحوه ، أو يذعر ذعر من رأى صخرة تنحدر عليه من عل ، فهو يرفضه تحرجا لورعه من ارتكاب ظلم ويعتـذر ويلح في ذلك ، ولكنه قد يجبر على قبوله مرغما ، فيقضي فيه فترة ما ، إلى أن يعفى من عمله . وعنـد العـزل يبرز لديـه شعور آخر مغاير تماما ، ولكنه مساو له في القوة والأهمية ، وقد يزيد عليه ، وهـو توقعه الشماتة من أنداده وأقرانه ممن لم يسبق اختيارهم للمنصب بدلا منه ، وتوقعه التشفي ممن سبق أن حكم القاضي عليهم إبان تقلده القضاء .

يروى في هذا الصدد أن القاضي محارب بن دثار قال :

«وليت القضـاء فبكيت ، وبكَى أهلي ، وعزلت عن القضاء ، فبكيت وبكى أهلي»[1] .

---

(١) وكيـع ٣/ ٢٥ .



وقال عامر بن عبيدة الباهلي :

« أتيت عبد الملك بن يعلي ، لما ولي القضاء ، فوجدت بابه مغلقاً والناس مجتمعون ، فاستأذنت ، فأذن لي ، وهو يتململ كالمرأة الماخض ، فقلت له : « ما بك ؟ » فقال : « وليت القضاء » . فلما عزل أتيته ، وهو يتململ ، فقال : « عزلت ، واشتماتة الأعداء ! »[1] .

وهناك قصة أخرى - يا بني - تستحق أن نفصّل أخبارها لك :

كان الأمير عبد الرحمن بن معاوية في الأندلس يديل القضاء بين عمر بن شراحيل ومعاوية بن صالح ، فانقضى عام وعمر في القضاء ، ولم يحركه ، فكتب معاوية إلى الأمير عبد الرحمن يحركه في ولايته ، ويعلمه أن عام صاحبه قد انقضى . فلما قرأ الأمير عبد الرحمن

(١) وكيع ٣/ ١٩ .

كتابه أنكره، واستفظعه، وأمر بإدخال معاوية على نفسه، فلما دخل إليه قال: «هذا كتابك؟» قال: «نعم». قال: «ومثلك يطلب ولاية القضاء، وقد علمت ما جاء في ذلك من الأثر فيمن طلبها، (ومن طلبها) وكل إلى نفسه فيها»؟

فقال: «أصلح الله الأمير، وليتني القضاء في أول الأمر وأنا كاره، فتوليته، فلما تولى رأس الشهر رزقني الله رزقاً واسعاً توسعت به، ثم استمر الرزق كل شهر، حتى عزلتني عند رأس العام، فاستقبلت العام الثاني الذي كنت معزولا (فيه) بفضول من رزق العام الأول فانقضت تلك الفضول بانقضاء العام. ثم وليتني فعاد عليّ الرزق، فكانت هذه حالتي إلى هذا الوقت. وقد انقضت فضولي الباقية من رزق العام الأول، وانقضى العام، فانتظرت الولاية التي يكون بها الرزق، فأبطأت عني،



فكتبت إلى الأمير مُذَكِّراً، مع أنه إن طلبت الولاية فقد طلبها من ظلّه في الأرض خير مني يوسف عليه السلام قال: «اجعلني على خزائن الأرض، إني حفيظ عليم»[1].

فقبل الآمير قوله منه، وأمر بعزل عمر بن شراحيل وتولية معاوية.

وهناك قصة أخرى - يا بني - تندرج في الاطار الذي نتحدث عنه، وهي تصور التأبي عن قبول منصب القضاء في أول الأمر تورّعا وخوفا من الزلل المؤدي إلى العقاب في الآخرة، وتَقْوىً وتقرّبا إلى الله بالنيّة الطيبة، ثم الحرص بعد ذلك على المحافظة على هذا المنصب دفعاً لشماتة الأعداء.

لما ولّى أبو جعفر المنصور القاضي شريكا الكوفة، أتى شريك عبيد الله بن العباس بن محمد، فقال له: استعف لي أمير المؤمنين فقال له: «إني لأعزل من ذلك؛ إن أمير

---

(١) يوسف ٥٥.



المـؤمنـين لا يُرَدُّ عن عزمـاتـه» فلما تُوُفِّيَ المنصور، وولي المهدي، قال له عبيد الله: «إنـك كنت سألتني أن استعفي لك أمير المؤمنين، فأبيت عليك. وأمير المؤمنين ألين جانبا، وأحرى أن يجيبنا إلى ما نسأله، فإن شئت استعفيته». قال: «أما الآن فإني أكره شماتة الأعداء»[1].

أي بني!

دعنا الآن نكتفي بهذا اللون من القصص التي وضحت أحوال القضاة عند التنصيب والعزل، ولننتقل الآن إلى ألوان أخرى من قصص القضاة والقضاء التي يحسن أن تعرفها، لأنها تضيف جديداً إلى ما عرفته من القصص السابقة عن شؤون القضاة.

ولك أن تعجب - يا بني - بادئ ذي بدء عندما تعرف بساطة القضاء في صدر الإسلام، وبساطة المؤهلات المطلوب توافرها فيمن يعين ليقضي بين

(١) وكيع ٣/ ١٥٣.



الناس ، وأوضح صورة لهذه البساطة ما قاله عبد الله ابن مسعود :

«أتى علينا حين لا نقضي ولا نحسن القضاء ، ثم قدر الله ما ترون»[1] .

ولمثل هذه الدلالة تشير القصة الآتية :

«دخل مروان بن الحسن عام خمس وستين مصر ، فقال أين قاضيكم - وكان عابس بن سعيد - فدعي ، وكان أمّيا لا يكتب . فقال له مروان : «أجمعت كتاب الله؟» قال : «لا» . قال : «وأحكمت الفرائض؟» قال : «لا» . قال : «فَلِمَ تقض بين الناس؟» قال : «أقضي بما أعلم ، وأسأل عما جهلت» . قال : «أنت القاضي»[2] .

أي بني !

هذا هو الحال في صدر الإسلام ، لقد كان

(١) وكيع ٢/ ١٨٨ .
(٢) وكيع ٣/ ٢١٣ .

الناس حينذاك يعيشون في ظل التعاليم الدينية الصافية، يحكم الإسلام جميع أمورهم، يعرفونه عمليا، ويلوّن حياتهم اليومية بكاملها، ولم تكن الحياة قد تعقّدت إلى حد يعجز معه مثل عابس أن يُري المتقاضين نور الطريق الهادي إلى الحق والعدل، والصراط السَّويّ.

لقد مَثَّل قول عائشة- رضي الله عنها- «إنما القضاء أن يؤخذ للمظلوم من الظالم». شعار القضاء آنذاك أصحَّ تمثيل وأصدقه، ولكن هذا القول دعا- فيما بعد- سليمان الشاذكوني إلى أن يقول: «صدق (الراوي)، ولكن ينبغي أن يُعرَف المظلوم من الظالم»[1]. وهنا يظهر الاختلاف بين القضاة، ويظهر ما يتميز به أحدهم عن الآخر من اختلاف في التجربة. وإن ما قالته عائشة- رضي الله عنها- يا بني- ينطبق أصدق انطباق على زمنها وأهله عندما كان الناس ينصفون من أنفسهم، ويريحون القاضي من السعي وراء الحقيقة، ومن

(١) وكيع ٢/ ٤٨.

تحرّيها بين المتقاضين .

أما في زمن سليمان هذا فقد فسدت ذمم الناس إلا من رحم الله ، وتغيَّرت أخلاقهم إلى غير ماكانت عليه ، فأصبح القضاء يحتاج إلى إضافة تُكَمّل تعريفه ، وتُوسّع حدود هذا التعريف . ولقد دعا الزمان الجديد القاضي أبا طوالة أيضاً إلى أن يقول : ليت لنا أخلاق آبائنا في الجاهلية مع إسلامنا[1] . وهو لم يقل هذا إيمانا منه بأن زمن الجاهلية خير من زمن الإسلام ، ولكنه أراد العتب على أهل زمنه ، وإشعارهم بالإثم ، فجهّم الأمر بهذه الصورة ، وسوّده بهذا اللون .

ولا بدّ أنه قد مرّت في ذهنه بعض الصور المضيئة التي كانت تقع بين آن وآخر في الجاهلية نتيجة إدراك بعض الناس بالفطرة والتدبر في الكون وخالقه ، وفي المجتمعات ومافيها ، أن هناك خالقاً ، وأن هناك أخلاقاً هي أفضل مما هو سائد عند عامة الناس آنذاك :

---

(١) وكيع ١/ ١٤٧ .



عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - قالت: رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسندا ظهره إلى الكعبة في الجاهلية، وهو يقول:

«يا معشر قريش، إياكم والزِّنَى، فإنه يورث الفقر»[1].

روُي أيضاً عن وكيع بن سلمة بن زهير بن إياد - وكان قد ولي أمر البيت بعد جرهم - قوله من كلام نقتطع منه ما يأتي:

«مرضعة وفاطمة، القطيعة والفجيعة، وصلة الرحم، وحسن الكلم، . . . وان من في الأرض عبيد لمن في السماء، هلكت جرهم، وربلت إياد، وكذلك الصلاح والفساد؛ من رشد فاتبعوه، ومن غوي فأرفضوه؛ كل شاة معلقة برجلها»[2].

---

(١) مجالس ثعلب ١/ ٢١٩.

(٢) البيان والتبيين ٢/ ١٠٩.



أي بني !

كل جيـل يرى أنّ جيله يختلف عمن سبقـه ، ويعدّ جيله متدهوراً في بعض النواحي . هذا أبو ذرٍّ الغفـاري مثـلا يقـول عن زمـانه عتبا ، وحثّا على التّحسّن مع أنه كان زمان الصلاح والتقوى .

«كان الناس ورقا لا شوك فيه ، فصاروا شوكاً لا ورق فيه»[1] .

وهـذا عبـد الله بن عبـاس - رضي الله عنهـا - يقول : عهدت الناس وهواهم تبع لأديانهم ، وإن الناس اليوم أديانهم تبع لهواهم»[2] .

وروي أن عائشة - رضي الله عنها - تمثلت بقول لبيد :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم
وبقيت في خلف كجلد الأجرب

---

(١) البيـان والتبيين ٢/ ١٩٧ . وزاد عليه صاحب محاضرات الأدباء ٢٥٥ «ان نفرتهم نفروك ، وان تركتهم ما تركوك» .
(٢) المســتطرف ١/ ٣٤٠ .



يتحدثون ملالة وخيانة
ويعاب قائلهم وإن لم يشعب

ثم قالت: كيف لو أدرك لبيد زماننا هذا؟ قال ابن عباس: رحم الله لبيدا، ورحم عائشة، لقد أصبت باليمن سهما في خزائن عاد كأطول ما يكون من رماحكم هذه، مريش مفوق، مكتوب عليها:

فهل لي إلى أجيال هند بذي اللِّوَى
لِوَى الرمل من قبل الممات معاد
بلاد بها كنا ونحن نحبها
إذ الناس ناس والبلاد بلاد[1]

أي بني!

في زمن عمر بن عبدالعزيز تطورت مؤهلات القاضي إلى إطار يتناسب مع ما أصبح عليه الناس ومع ما طرأ على المجتمع من كثرة الخلطاء، وارتفاع عددهم، وتوسع المدن والذّمم، قال عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله -:

---

(١) بهجة المجالس ٢/ ٧٩٧.



«لا يصلح القاضي إلا أن تكون فيه خمس خصال: يكون صلبا، نزها، عفيفا، حليما، عليما بما كان قبله من القضاة والسنن»(١).

ولا بد أن يضاف إلى ما ذكره عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - نباهة القاضي، وذكاؤه، وفراسة وافية يميز بها الحقيقة من الزيف، والأصل من التدليس، والصدق من الكذب، وما هو مقبول من الأدلة لأنه يمثل الواقع، وما هو مرفوض لأنه مفتعل. ويحتاج القاضي وراء ذلك كله إلى التجربة، فهي تزيد نباهته حدة، وتكوّن عنده ملكة تسعفه وقت الحاجة، وتوفِّر عليه وقتاً وجهداً، وتجعله يتميز عن غيره من القضاة المحدثين، في كشف أستار الأمور، فلا ينخدع بما قد يظهره الخصم من تصنع قد يغترُّ به غيره:

قال الشعبي: «شهدت شريحا، وجاءته امرأة تخاصم رجلا فأرسلت عينها، فبكت،

---

(١) وكيع ١/ ٥٧، ٢/ ٤٢٣.

فقلت : يا أبا أمية ، ما أظن هذه البائسة إلا مظلومة » . فقال : « يا شعبي ، إن إخوة يوسف ، « جاءوا أباهم عشاء يبكون »[1] .

هنا - يا بني - يتلاقى الذكاء والعلم والتجربة والفراسة ، مما ساعد شريحا على أن يرى ما لم ير الشعبي ، وعلى أن يحتاط في هذا الموقف العاطفي المؤثر الذي شغف قلب الشعبي .

وإذا اجتمع الذكاء والعلم عند القاضي النابه ، أمكنه أن يستبعد بهما الشاهدَ الذي لا يجده أهلا للشهادة . واستبعاد الشهود من الأمور التي يحتاج فيها القاضي إلى اجتماع الذكاء والعلم ، يُروى في هذا الصدد أنه قد :

« جاء إلى شريح شاهد ، وعليه قباء مخروط الكمّين ، فقال له شريح : أتحسن تتوضأ ؟ » قال : « نعم » . فقال : « إحسر عن ذراعيك » . فذهب يحسر ، فلم يستطع أن

---

(١) وكيع ٢/ ٢٢١ . والقرآن الكريم ، سورة يوسف ، آية ١٦ .



يخرج يده، فقال شريح: «قم فلا شهادة لك»[1].

ومن القصص التي تبدو فيها اللباقة إلى جانب الذكاء والعلم ما فعله القاضي إياس عندما تقدم له وكيع بن أبي الأسود، صاحب خراسان، ليشهد عنده. فقال له: «ما حاجتك؟» قال: «جئت لأشهد». قال إياس: «مالك وللشهادة؟ إنما يشهد الموالي والتجار والسفلة» قال: «صدقت»، وانصرف. فقالوا لوكيع: «خدعك، إنه لا يقبل شهادتك، وردّك». قال: «لو علمت لعلوته بالقضيب»[2].

ولإياس هذا موقف آخر يدل على ذكاء نادر، وإدراك ناضج؛ فقد جاءته امرأتان تختصمان في كبّة غزل، وليس معهما بينة، فعزل واحدة عن الأخرى، وسأل إحداهن منفردة:

(١) وكيع ٢/ ٣٠٠.
(٢) وكيع ١/ ٣٤٣.

«على أي شيء كببت غزلك»[1]. قالت: «على كسرة خبز، فنحّاها»، وقرَّب الأخرى، فقال: «على أي شيء كببت غزلك؟» قالت: «على خرقة». فأمر بالكبة فنقضت فإذا هي على كسرة خبز[2].

وفي قصة أخرى لإياس نراه لحسن ذكائه وإدراكه، يصل إلى هدفه في إيضاح المعمّى وإظهار الحقيقة:

جاء رجلان يختصمان في قطيفتين: احداهما حمراء، والأخرى خضراء؛ فقال أحدهما: «دخلت الحوض لأغتسل ووضعت قطيفتي، وجاء هذا فوضع قطيفته بجنب قطيفتي ثم دخل واغتسل فخرج قبلي، فأخذ قطيفتي ومضى بها، ثم خرجت فتبعته، فزعم أن مامعه قطيفته». فقال له إياس: «هل لديك

(١) أي ماهي الأداة الصلبة التي بنيت عليها بدء الغزل وهو مايسمى «المغزل».

(٢) وكيع ١/ ٣٣٢.



بينّة؟» قال: «لا». قال: «إيتوني بمشط، فسرّح رأس هذا، ورأس هذا، فخرج من رأس أحدهما صوف أحمر، وخرج من رأس الآخر صوف أخضر - فقضى بالحمراء للذي خرج من رأسه أحمر، وبالخضراء للذي خرج من رأسه صوف أخضر»[1].

ومن القصص المشهورة عن إياس أيضاً، وهي تدل على تبصر وأناة، وعمق في التفكير، وعلى معرفة بالطرق الكاشفة لحيل المحتالين، والحامية للطيبين الأبرياء من ألاعيب الخبثاء، القصة التي تقول:

إن رجلا أودع عند آخر كيسا فيه دنانير، فغاب المودع خمس عشرة سنة، ثم رجع وقد فتق المودَع عنده الكيس من أسفله، وأخذ ما فيه، وجعل مكان الدنانير دراهم، وأبقى الخاتم على حاله دون أن يمسه، ونازعه عند

(١) وكيع ١/ ٣٣٩. راجع ما سبق ص ١٠٨.

إياس القاضي . فقال إياس : «منذ كم أودعته ؟» قال : «منذ خمس عشرة سنة» فقال المودع عنده : «صَدَقَ» . فأخرج إياس الدراهم فوجد فيها ما ضرب منذ عشر سنين وخمس سنين . فقال للمودَع عنده : «إنه أودعك منذ خمس عشرة سنة ، وهذا ضرب أحدث مما ذكرت» . فأقرّ له بوديعته ، ودفعها إليه[1] .

ولنا الآن وقفة قصيرة - يا بني - نعلّق فيها على هذه القصة ، وننبّه إلى أنه مما جرت به العادة أن كل لص في أي مجال يخطط دائماً للخطوات العملية لارتكاب جريمته ، وفي الوقت نفسه يجهد فكره في تغطية أي أثر يدل عليه . واسمع - يا بني - القصة الآتية فهي تعطيك مزيداً من الإيضاح لما نقول . وهي أيضاً تجعلك تدهش لماذا يصرف بعض الناس نعمة الذكاء التي أنعم الله بها عليهم إلى طريق الغواية والضلال بدلاً

(١) وكيع ١/ ٣٤٢ .



من الاستفادة منها في طريق الهداية والرشد :

«شاهد عبد الله بن محمد الخفاف لِصًّا قد أُخـذ ، وشهـد عليه أنه كان يغش الأقفال (يفتحها بغير مفاتيحها) في الدُّور اللِّطاف . فإذا دخل حفر في الدار حفرة لطيفة ، كأنها بئـر النـرد ، وطـرح فيهـا جوازات ، كأنـه يلاعب إنسانا ، وأخرج منديلا فيه نحو مئتى جوزة ، فتركـه إلى جانبها ، ثم يكوّر جميع ما يطيق حمله ، فإن لم يُفطن به خرج ، وإن جاء صاحب الدار ترك القماش وأفلت . وإن كان صاحب الـدار جلداً فواثبه ، وصاح : اللُّصوص ! واجتمع الجيران أقبل عليه اللص وقال :

ما أبردك أنا أقامرك بالجوز منذ شهور ، قد أفــقــرتــني وأخــذت كل ما أمـلك . لأفضحنّـك بين جيرانـك ، لَمَّا قامرت الآن تصيح ، يا عَثُّ ، يا بارد ، بيني وبينك دار القمار . قل : قد صفوت حتى أخرج . فيقول

الجيران : إنما لا يريد أن يفضح نفسه بالقمار ، فقد ادّعى على هذا اللصوصية ، فيحولون بينهما ، ويخرجون اللص»[1] .

نعود- يا بني- إلى قصتنا التي سبقت هذه والتي كشف إياس مزّيفَ ما في الكيس من نقود ، فنقول إن فكر اللص دائما محصور في زوايا معينة في الأمر الذي هو بصدده ، تهمُّه هذه الزوايا فتطغى على فكره وتصوره ، فهو لا يفكر في الزوايا الأخرى ولا يحيط بها ، فتكون هى المداخل من غيره عليه ، والمناطق الضعيفة في حصنه الذي شيَّده ليحتمي خلفه ، ولهذا يفاجأ بما قد يثيره الآخرون مما لم يخطر له على بال ، فيبهت ويَنْشَدِه ، ولأنه لم يتعود على مقابلة المفاجآت ممن يفوقه ذكاء ينهار رأسا ، ويكشف عن كل ما لديه ، ويبوح بما في نفسه ، مما لم يكن يتصور أنه سيبوح به . وفي قصة إياس هذه دلالة على كفاءة القاضي الذي عرف كيف يصنع المفاجأة ، وكيف يرتب خطواتها ، ومتى يلقي بكل

---

(١) أخبار الظراف ١٠٧ .



واحـدة من هذه الخـطوات ، لتأتي النتيجة المرجوة ثمرة ناضجة لمجهود محمود .

ولو كان السَّارق في هذه القصة أُعطي الفرصة للتفكير فيما فاجأه به القاضي إياس لكان له مخرج يمكن أن يقــول فيـه : إنى فعـلا غارم ، لأني قد فرطت فلم أضـع الأمـانـة في حرز مكين ومكان أمين ، فجاء من جاء في غفلة مني ، ففض الحرز ، وفعـل فعلته فغيّر ما فيه . فقد تُوهم هذه الكلمات السـامع بأنه صادق . ولكنها لم تكن لتدفعه لو أن المودع فض الختم عندما تسلّم الكيس ، ولاحظ للتوّ ما حدث من اللعب بما فيـه ، فواجه بذلك اللص الذي كابر بدوره ظانا منه أن ما فعله هو نتيجة ذكاء لا يعـلى عليـه . على أي حال لقـد انحصر جهـد السارق - يا بني - كما رأيت في تحقيق حيلة يبرّر بها إتقان فك الكيس بطريقة متفننة ، وظن جهلا منه أنّ هذا كاف ، وهو - كما لاحظت - لم يكن كذلك .

هاأنـت ترى - يا بني - أن كل قصـــة من هذه القصص تختلف في طبيعتهـا عن الأخرى ، ولكن

النسق فيها جميعا يكاد يكون واحدا ، وهو نسق يبين مجرىً واضحاً في تفكير إياس العام، مع أن إياسا كان يدخل في كل قضية من الزاوية التي توصل - في نظره - إلى الحل ، منطلقا من فطنته وذكائه وفراسته في الخصوم إلى النقطة التي يعدُّها المدخل إلى معرفة كنهِ المعضلة ، مما يسهل عليه الحل . وإني أدعوك إلى مقارنة القصص السابقة والزوايا التي دخل منها إياس إليها بما فعله في القصة الآتية :

«استودع رجل رجلا أمانة فجحده ، فأتى إياسا ، فأخبره فقال له إياس بن معاوية : «أَعَلِمَ أنك سوف تأتيني؟» قال : «لا» . قال : «أفنازعته إلى أحد غيري؟» قال : «لا ، لا يعلم أحد بهذا غيرك» . قال : «إذن انصرف ، ثم عد إليّ بعد يوم أو يومين» . ودعا إياس الرجل المؤَّمن عنده المال ، وقال له : «لقد اجتمع عندي مال كثير، أريد أن أودعه عندك ، أفحصين منزلك؟» قال : «نعم» . قال : «عد إليّ يوم



كذا ، وأعِدَّ موضعا للمال ، وقوما يحملونه» ففعل . ولما عاد المُودع إلى إياس ، قال له : «انطلق إلى صاحبك ، وأطلب منه مالك ، وإن جحدك فقل له : إنى سوف أذهب وأخبر القاضي» ، فذهب ، فاستقبله الرجل ، ودفع إليه ماله ، وأخبر إياسا بهذا .

ثم جاء الرجل المنكر للمال على الموعد الذي بينهما لأخذ المال الذي كان القاضي سيأتمنه عليه . فزجره القاضي ، وشهَّر به ، بعد أن أفهمه معرفته لخيانته[1] .

إنك ترى هنا- يا بني- فراسة إياس وعقله ، فمنذ الوهلة الأولى عرف الصادق من الخصمين ، ثم انتقل إلى الخطوة الثانية فجعل أساسها معرفته بطمع بعض الناس بالمال ، والشّرّ الذي يسيطر عليهم ، فاستفاد من إدارك هذه الرذيلة ليكسب بها فضيلة ، ومن هذا النقص ليأتي منه حكم كامل

---

(١) وكيع ١/ ٣٧٢ .

عادل . ولم يكتف بما قد يكتفي به غيره من القضاة من اليمين والشهود . وهما بلا شك أساسان شرعيان ، ولكنّ إياسا أجل العمل بهما حتى يستنفذ غيرهما من الوسائل ، وهذا سر نجاحه ، فهو لا يلجأ إلى الكي إلا بعد أن يعجز عن الاستفادة من الدواء .

ونباهة القاضي - يا بني - لا تقتصر على فك عقد الحيل ، أو كشف الغامض مما يخبؤه الخصوم تعمّدًا ، ولا تكتفي بالتصدي للتظاهر والافتعال ولكنها تتعداه إلى اتخاذ الخطوة الصائبة ، أمام أي أمر يطرأ خارجا عن عمل القاضي المعتاد ، وبعض هذه الأمور تأتي بصورة اعتراض يحتاج إلى رد ، ومقارعة للحجة بالحجة ، وابرازٍ للبرهان القوي والقول المفحم . وفي هذا كله يحتاج القاضي إلى أن يكون سريع البديهة ، حاضر الذهن ، وافي الإجابة لا تهزه المفاجأة ، ولا تربكه المباغتة ، فربما يكون المتقاضي قد أعد ما أعده وحضّره ، وقد يكون استعان عليه بعالم أو صاحب مهنة :



جاء عمــر بن سليمان الكـلابـرى إلى عبد العزيز الحسن العنبري القاضي ، فقال : « هلكت هلكت ! » قال : « ومـا أهلكـك ؟ » قال : « بلغني أن خصمي عنـــدك ، ولست حاضراً » . قال الـقــاضي : « فهـــو ذا أنت عنـدي ، وليس خصمك حاضراً » ، فقال : « فكأنما صب عليه ذنوباً »[1] .

إنـه ليس رداً مفحِـماً فقط - يا بني - كما ترى ، ولكنـه جاء سريعا على البديهة ، مما أدهش الرجل وألجمه ، وكأنه صَبَّ عليه دلوا من ماء فبرد ما كان ساخنا منه ، وهدأ ما كان وجلا . انه جواب بسيط ولكنه مدهش ، وهو في مكانه ، وكأن القاضي قد أمضى وقتا طويلا يفكر فيه ، وربما لو كنت أنا أو أنت في مكان هذا القاضي لأخذ فكرنا مسربا آخر ، ولفكرنا في تأنيبه على شكه في القاضي ، ولزدنا على ذلك غضبا يخيفه منا ، ويجعله في شك من عدلنا . وهكـذا حرص القـاضي العنـبري ولـه من اسمـه

---

(١) وكيع ٢/ ١١٥ .

نصيب على طمـأنة الرجل بأن أيقظه من غفلته ، وأسمعه دليلا يريح ذهنه ، لا يحتاج معه إلى إقناع .

أي بني !

إن مما يساعد القاضي في عمله ، ويعضد علمه ونباهته ، تواضعه ، فالتواضع يكسبه محبة الناس ، ويقفل عنه بـابـاً قد يفتحه الخصم الذي لم يحكم له ، فيحمـل على القـاضي ؛ وهـو إذا اتصف بحليـة التـواضـع فإن النـاس يكـونون معه ، ولا يقبلون ما يقوله فيه الخصم الغاضب ، وهذا بالإضافة إلى أن القاضي المتواضع تسبقه سمعته الطيبة في المجتمع .

والتواضع - يا بني - صفة تدلّ على حب للخير دفـين في الشخص ، والمتـواضع سعيد دائما ، لأن التواضع يجعله راضيا بالواقع أيا كان ، ولا يتطلع إلى ما لا حقّ له فيـه ، فلا يخيـب أمله عنـد عدم إدراكـه ، والمتـواضـع يَسْلَم بتـواضعـه من العقد النفسيَّة التي يغطيها صاحبها بالتعالى ، والادّعاء ،

والتظاهر ، ومحاولة أن يكون في وضع أعلى مما يعطيه إياه مقامه ، أو مقدرته ، فيدّعي ما ليس فيه ، ويظهر غير ما يبطن . وعند تتبع أخبار الماضين من القضاة المعتبرين ، الذين عرف عنهم التواضع ، نجد بعض ما يوجب الوقفة المتأنية :

قيل للقاضي ابن شبرمة : «إنك سيد أهل العصر» . قال : «فأنا إذًا كما قال الشاعر :

خلت الديار فسدت غير مسوّد
ومن الشقاء تفرُّدِي بالسؤدد[1]

وتكبّر عدسة التدبر والفحص القول الذي لم يُرضِ ابن شبرمة وتستدعي إلى الذاكرة قول الشاعرَ :

لعمر أبيك ما نسب المعلّى
إلى كرم وفي الدنيا كريم
ولكنّ البلاد إذا اقشعرت
وصوح نبتها رُعِيَ الهشيم[2]

(١) وكيع ٣/ ١٠٦ .
(٢) معجم الأدباء ٣/ ٨٩ .

وقد وضع ابن شرف القيرواني قدمه على جادّة هذا المعنى، فقال:

قالوا تسابقت الحميـ
ـر فقلت من عدم السوابق
خلت الدسوت من الرخا
خ ففرزنت فيها البيادق[1]

وللعامة - يا بني - قول في هذا المعنى، يذكرونه في مثل هذا الموقف: «من عدم الرجال سُمِّيت رجلاً». وهو في نظرهم منتهى التدنّي.

هذا جانب من صور تواضع القضاة، وهناك جانب آخر تمثله قصة أخرى. وإذا كانت القصة السابقة تمثل تواضعاً معنوياً، فإن هذه تمثل تواضعا مادياً عملياً:

«قيل لعلي بن ظبيان، وهو ببغداد قاضياً، إنك تجلس للحكم على بوري (حصير)، وقد كان من قبلك من القضاة

(١) معجم الأدباء ١٩/ ٤٠.



يجلسون على الوطاء ويكتبون . فكتب : إني لأستحي أن يجلس بين يدي رجلان حرّان مسلمان على بوري وأنا على وطاء . لست أجلس إلا على ما يجلس عليه الخصوم»[1] .

إن هذا التواضع - يا بني - مبني على أسس قوية . إن السبب في تواضع هذا القاضي يعود إلى عمق حاسة العدل عنده ، والعدل هو إيجاد التوازن الكامل بين أمرين ، فبما أنَّه مسلم حر ، والمتخاصمان كذلك ، فما الذي يميزه عنهما؟ وبما أنه رجل عدل ، فليس من العدل أن لا يتساوى معهما ، وليس من العدل أن يتميز بالنتيجة إذا كانت الخطوات الأولى للمعادلة متساوية .

ثم لاحظ - يا بني - أنه اختار صفتين اختارهما الله - سبحانه وتعالى - للمفاضلة بين النَّاس في كثير من أمور الدين والحياة وهما الإسلام والحرية ، فبنى رأيه وتصرفه على أساس إسلاميّ صحيح ، جعل هدى الله فيه أمامه ، واتخذه قائده والقدوة له .

---

(١) وكيع ٣/ ٢٨٦ .

والتواضع - يا بني - لا تجده عند القضاة في مكان العمل فقط - ولكن تجده معهم أينما حلوا ، يعضده خلق حسن ، وحب لنفع الناس ، وبعد عن ضررهم ، وهو مما لا بّد أن يتحلَّوا به قبل أن يختاروا قضاة . وللتواضع ونحوه من الصفات دَخْل في اختيارهم قضاة ؛ لأن سمعة الشخص تسبقه إلى الناس ، وإلى أولي الأمر .

هذا شريح القاضي لا يجعل ميزابه إلا في داره ، وكان إذا مات له سنّور دفنه في داره ، ولم يطرحه[1] .

هذا الخبر فيه من الفوائد عدد غير قليل ، فهو يُعطِي فكرة عن طيب عنصر شريح ، وبعده عن أذى الناس ، وحبه الخير لهم ، حتى ولو تحمل في سبيل ذلك الأذى . فإذا عرفت - يا بني - أن المِثْعَب (أو الميزاب) هو لتصريف مياه بيت الخلاء ، أدركت إلى أي مدى أبعد شريح الأذى عن الناس وتحمَّلَه في باحة بيته .

---

(١) وكيع ٢/ ٢٢٠ .



ومثل هذا يمكن أن يقال في السّنّور، كما أن النصّ يعطينا صورة للبيوت وخططها، ووضع المرافق فيها في ذلك الزمن.

في القصة الآتية لون آخر فيه شذًى يعبق من نفس القاضي:

كان يحيى بن سعيد خفيف الحال، فاستقضاه أبو جعفر، فارتفع شأنه، فلم يتغيّر حاله. فقيل له في ذلك، فقال: «من كانت نفسه واحدة لم يُغيِّره المال ولا الافتقار»[1].

وهذا التصرف يشهد، بلسان فصيح، أن صاحبه خال من العقدة النَّفسية التي تستولي على بعض الناس بعد أن يصبح غنياً، فيبدو وكأنه يريد أن ينتقم من الفقر وأيامه، فلا يزيده هذا إلا انحداراً في داخل نفسه وفي أعين الناس. أما يحيى ابن سعيد فطينة زكية مختلفة، فلقد وضع أساساً في

(١) وكيع ٣/ ٢٤٢.



ردّه على من لاحظ تواضعه ، وقد دلَّ اختياره له على علم وعمق فيه ، فالنفس هي النفسِ ، فلماذا تتغير بتغـير العـرض، وهي الجـوهر يُغَيِّر مايتعلّق به ، ولايتغيّر هو، وإلا انقلبت الموازين .

ومسك الختام- يابني- في أمر التواضع ماقاله أبو يوسف :

«يـاقوم، أريـدوا بفعلكم الله ، فإنّي لم أجلس مجلسا قط أنوي فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلوهم ، ولم أجلس مجلســا قط أنوي فيه أن أعلوَهم إلا لم أقم حتى أفتضح »[1] .

أَتَـذْكـر- يابني- ماسبق أن قلنـاه عن حديث النيّـة : «إنـما الأعمال بالنيات- وإنما لكل أمرئ مانوى» . إن أبا يوسف طبق هذا الحديث بالتجربة الصادقة التي لم يلبث أن ألقاها موعظة على الناس .

---

(١) وكيـع ٣/ ٢٥٨ .



أي بني !

من الأمور التي تحتاج إلى معرفتها المواقف التي يتعرض لها القاضي في عمله، وبعضها مواقف جد، وبعضها أقرب إلى الهزل، بعضها يحتاج إلى علم، وبعضها يحتاج إلى ذكاء ونباهة، وبعضها يحتاج إلى لباقة، وبعضها يحتاج إلى صبر وتحمل، ومن الأمور التي تحير القاضي - يا بني - ويحتاج إلى كل ما لديه من مخزون اللباقة والتلطف ما تعرَّض له القاضي إسماعيل بن حماد :

«جاءته امرأة، فقالت له : «أيها القاضي، إن عمي زوجني من هذا، ولم أعلم، فلما علمت رددت»، قال القاضي : «ومتى رددت؟» قالت : «رددت وقت علمت»، قال لها القاضي : «ومتى علمت؟» قالت : «وقت رددت»[1].

وبقي القاضي - يا بني - في حيرة مع هذه الفتاة

(١) وكيع ٢/ ١٦٨ .

الساذجة التي أدخلته في دوّامَة، وجعلته في حلقة مفرغة لا يعرف أولها من آخرها، إن هذا لا بد أن يذكرك - يا بني - بجملة: «حصاني سيسياني توه جاي من عماني وش تعشيه»[1].

ومن الأمور - يا بني - ما يحتاج القاضي فيه إلى لباقة، ومنها ما لا تنفع فيه اللباقة فيضطر القاضي إلى أن يكشر عن نابه، ويهز مِشْعابه، حفاظا على حرمة العدالة، وصيانة لمقامها عن أن تهان أو تلمس بسوء:

جاء الأشعث بن قيس إلى شريح القاضي في مجلس القضاء، فقال له شريح: «مرحبا بشيخنا وسيِّدنا، ها هنا». فأجلسه معه، فإذا رجل جالس بين يدي شريح، فقال شريح: «مالك يا عبد الله؟» قال: «جئت أخاصم الأشعث بن قيس». قال شريح للأشعث: «قم مع خصمك» قال:

(١) أي بني ٢/ ٢٤٠.



«وما عليك أن تقضي وأنا هنا؟» قال: «قم قبل أن تقام». فقام وهو مغضب. فقال للقاضي شريح: «عهدي بك يابن أم شريح وإن بثيابك السُّوس». قال القاضي شريح: أنت رجل تعرف نعمة الله على غيرك، وتنساها في نفسك[1].

إن هذا التصرف من القاضي النابه شريح يبهج النفس. ولو أنك حللت النص- يا بني- لوجدت مكامن العظمة ظاهرة تعلن عن وجودها ومكانها، فشريح عندما رأى الأشعث رحّب به لمكانه ومنزلته، وأكرمه بأن أجلسه معه في مكان القضاء، ولكنّه عندما علم أنه جاء إليه مخاصماً سعى ليجعله في مكانه اللائق به، فمجلس القضاء يجب أن يتعادل فيه الخصوم، لأن مظهر التفرقة قد يؤثر على مخبر الحكم عن طريق العامل النفسي الذي ينشأ في نفس أحد الخصمين أو عن طريق الوهم والظن، فالخصم قد تدخله الرِّيبة في أن مجلس خصمه

(١) وكيع ٢/ ٢١٦.

الآخر المبجل قد أثر على القاضي مما يجعل هذا المرتاب يتخاذل في دفاعه عن نفسه ليأسه ، أو يشتط فيه أكثر مما يجب ، فلا يقول الحق أو لا يكتفي به . والمكرم من الخصمين قد يعطيه التكريم رفعة نفسية تجعله يعلو على خصمه لاطمئنانه وهدوء أعصابه . أما إذا جلس معه جنبا إلى جنب فإن الأمور تكون قد وضعت في نصابها من جميع الوجوه ، وتكون الخطوات الأولى مُقَدِّمَةً للعدل وعنوانا له ، ويكون القاضي قد أبعد عن نفسه التّهمة أو الشّبهة ، ويكون الخصم قد أُبْعِدَ عن الشك وبرئ منه ، وبهذا يعرف أيضا الخصم ، صديق القاضي الذي حمد التكريم أن القاضي جادّ في الحكم بالعدل ، فيمنع نفسه عن محاولة الاستفادة من الصداقة أو المعرفة أو نحوهما .

ولا تظن - يا بنيّ - أنَّ من السّهل على القاضي أن يقدم على مثل هذا ، فالصراحة - في نظر القاضي - قد يراها الآخرون وقاحة ، وقد تأتي للقاضي - بما يزعجه ، وفي قصتنا هذه استمعنا إلى ردٍّ ملك فيه



القاضي أعصابه ، وحاول فيه ألا يشتم ، والتزم بأن لا يزيد فيه عن تقرير حقيقة غابت عن هذا الزائر الذي أهاجه الغضب ، فخاطب القاضي بكلام ذكر فيه والدته ، وذكّره بماضيه ليزيد في إهانته . ولكن هذا لم يثر القاضي ، ولم يخرجه عن صوابه ، ولم يطفئ سراج عقله ، فالتزم صبرا شديدا ربما يكون قد أدى إلى إصابته بداء السكري ، وكتم غيظه ، وتحمل غليان مرجله في صدره ، فلم يسمح لشحنة الغضب أن تنطلق .

ولا تظنّنّ - يا بني - أن هذا الموقف الذي تعرض له شريح موقف يتيم منقطع النظير ، لا ، إنه يحدث كثيراً بسبب جهل بعض الناس بالقضاء وأصوله وآدابه ، وبما يجب أن يكون عليه القاضي من بعد عن الشبهات ، وحيطة متناهية تبعده عن الشك ، فلا يقع الخصوم في ريب من أمره وأمرهم . وهناك قصة أخرى مماثلة لقصة شريح هذه ، تسير على نمطها ، وتحذُو حَذوها ، وهي أيضاً لشريح نفسه .

جاء ابن عصفور إلى شريح القاضي، فخاصم آخر عنده، فجلس مع شريح على الطنفسة التي يجلس عليها شريح، فقال له شريح: «قم، فاجلس مع خصمك، فإن مجلسك يريبه». فقال: «تعلمني بك يابن أم شريح؟!» قال شريح: «إني لأدع النصرة، وإني عليها لقادر»[1].

ان الجملة الأخيرة- يا بني- التي نطق بها شريح تستحق أن توزن بالذهب والجواهر، إنها ملأى بالعقل، ومنتقاة انتقاء يدل على عمق في التفكير، وعلى قدرة على امتلاك زمام النفس، ولجم الأعصاب، وإنه للجام صلب حقاً. أجل إن شريحا لا يريد أن ينتصر لنفسه من هذا المتهجم، الذي صرعه غضبه، وهو غضب لا مبرر له، لو فكر وقدر، ولكنه لم يفكر ولم يقدر، وانساق مع عاطفته الساذجة، وأطلق سَهْم غضبه الطائش العنان، فرد شريح سهمه بترس من مادة نبيلة نادرة. نعم إن

(١) وكيع ٢/ ٢٩٥.

شريحا تنازل عن الانتصار لنفسه ، وإنه لقادر على الانتصار ، فهو يستطيع أن يهينه ويذله بحق ، وكان بالامكان أن يطلق عليه رجاله ، وهم أشداء مدربون ، وأن يودعه السجن ، وأن يجلده ، وقد فعل غيره ذلك ؛ ولكنّ شريحا علا وأبعد في العلو ، حتى صار خصمه أمامه مثل النَّملة صغراً وحقارة .

هل جرّبت - يا بني - التسامح والترفع عن مجاراة السفيه . إن لهذا - يا بني - لذة لا توصف ، ولا يعرفها إلا من جرّبها ، لذة نفسية عميقة متوغلة ، وكلما مرّ عليها الزمن زادت عبقا في ذكراها وصداها . وبخلاف ذلك - يا بني - يكون ألم الانتصار إذا كان غير عادل ، هنا تعاني النفس من مشاعر التغلب على الخصم ظلما إذا حدث هذا التغلب بفعل قوة ما أو سلطة ما أو قدرة ما ، إن هذا فعلٌ لا بد أن يتلوه الندم ، حتى لو كابر الإنسان وأخفى ذلك أو أظهره ، ان الندم يزيد مع الزمن ، والناس لا بد أن يلحظوه ، لأنهم يتوقعونه ، والخصم المغلوب ظلما هو أول من سيشعر أنه



استوفى حقه على الرغم من أنه غُلِب ، لأنه يعرف أن خصمه لم يغلبه عن طريق شريف ، وسيزداد شعورهُ بالراحة النفسية مع الوقت ، ويبدو الأمر في هذا وكأنه كفتا ميزان ، فبقدر مايسعد هذا يشقى ذاك ، وبقدر مايزول التوتر عند هذا يزيد عند ذاك . الخصم الشريف واجه الأمر بشرف ، ودافع عن حقه ، والآخر جبن عن أن يسير على الخط المستقيم ، ولجأ إلى خط معوج ، وهو يعرف أن هذا ليس طريق الشجاعة ، وأن الشجاعة في الحقيقة هي شجاعة خصمه .

ولا بدّ - يا بني - من غضب واحد من المتقاضيين في كل قضية ، إلا ما قل عندما يجرى الحكم بينهما مجرى الصلح ، والذي - لا يلجأ إليه القاضي في العادة إلا إذا لم يكن هناك حكم شرعي واجب .

قال عطاء :

«لا ينبغي للقاضي إذا تبين له القضاء أن يصلح بينهم»(١) .

---

(١) وكيع ١/ ٧٥ .



وجاء في كتاب من عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- إلى معاوية بن أبي سفيان :

«واحـرص على الصلح بين الناس ما لم يستبين لك القضاء»[1] .

ورضىَ النـاس- يا بني- غايـة لا تدرك ، لأن السـير بما يرضيهم قد يكـون فيه ما لا يرضي الله ، وهم لا يفكـرون في لحظات الحـاجـة إلا فيـما فيه مصلحتهم ، وتعمى قلوبهم عما للآخرين من حق ، ولو كان الأمر بيدهم وحدهم لأخذوا ما ليس لهم بحق أضعـافـا مضـاعفـة ، ولكنّ الله جعل في يد القضـاة ما يحقق العـدل ، ويـزن الأمـور بالقسط ويعطي كل ذي حق حقه :

لما دخـل أبـو جعفـر المنصـور المـدينـة المنورة ، يريد الحج ، لقيه الناس يتظلمون من القاضي محمد بن عمران وهو يسايره ، فقـال : «ما هذا؟» قال : «يا أمير المؤمنين ،

(١) وكيـع ١/ ٧٥ .



مالم تر أكثر، نصف أهل المدينة ممن قضيت عليهم غضبان، ولا والله ما يجوز للقاضي أن يترك الحق لغضب الناس». فأمن أبو جعفر على كلامه:

إن نصف الناس أعداء لمن
ولي الأحكام هذا إن عدل[1]

أي بني!

إن القاضي- يا بني- يجتهد في اصدار حكمه على أسس من الدين، وهو إما أن يأخذ حكمه من القرآن، أو من السنة، أو من الأئمة الراشدين والصحابة الأجلاء، والقاضي مع هذا ليس معصوماً من الخطأ، فقد يعتمد على قاعدة، وقد يختار غيره من القضاة غيرها؛ ولهذا لا يستغرب أن تأتي فتوى قاض آخر مختلفة عن فتوى القاضي الأول، أو أن يأتي حكمه غير مطابق لحكم آخر، لأن العلم عند هذا القاضي قد يكون أوفى منه عند

(١) وكيع ١/ ١٨٣.



ذاك ، لأن النظرة إلى الأمر عند هذا القاضي قد جاءت على أساس قاعدة أخرى ، ومن زاوية مختلفة ممّا يؤثر في الغالب على الاستنتاج . ولكن الثواب ثابت ما دامت النية حسنة ، والاجتهاد مبذول :

كان القاسم وسالم وإياس قعودا إذ جاءهم رجل فسأل عن رجل قال : «امرأته طالق إنْ» ، وسكت عند كلمة «إنْ» . فقال لإياس : «ما تقول يا أبا وائلة؟» فقال إياس : «هذا رجل أراد أن يحلف فلم يحلف» . وقال عثمان البتي مثل قول إياس . وقال الأشعث إنه يرى أيضا هذا الرأي . قال الأنصاري : «فذكرت ذلك لزفر» ، فقال : أخطأ إياس ، هذا رجل حلف بطلاق فأراد أن يستثني فلم يستثن»[1] .

وأنا وأنت في حدود علمنا وعقلنا لا نستطيع أن نرجح رأياً من هذين الرأيين ، فكما ترى كل رأي منهما مستند على سبب قوي يقبله العقل ، ولا تأباه

---

(١) وكيع ١/ ٣٢٣ .



النفس ، وهو مقبول إذا نظرنا إليه من الزاوية التي نظر إليه منها صاحب الرأي .

وهناك قصة ثانية - يا بني - اختلف فيها قاضيان ، فقد ضرب رجل دابة رجل ، فنفحت رجلا ، فقطعت أذنه ، فاختصموا إلى سلمان بن ربيعة ، وهو على القضاء في القادسية ، فقضى أن الضمان على الراكب ، فبلغ ذلك ابن مسعود ، فقضى أن الضمان على الضارب ؛ لأنه إنما أصابه نفحة ضربته[1] .

في هذه القضية اختلفت أيضاً - يا بني - نظرة كل من القاضيين عن الآخر ، بسبب اختلاف الزاوية التي نظر كل واحد منهما إليها . والزاوية هي التي حددت الرأي ورجحته . وهذا لا يعني أن أيّا منهما لم يقلّب الأمر على جوانبه ، ولم ينظر إليه من جميع زواياه ، ولكن الاختيار النهائي لكل واحد منهما رجح ما أرتآه الأرجح .

---

(١) وكيع ٢/ ١٨٦ .



ولعلك- يا بني - تجد في القصة الآتية مزيداً عما وجـدته في القصتين السابقتين لأن أحد القاضيين فيها كان الخليفة الراشد علي ابن أبي طالب- رضي الله عنه- أحد من اختارهم الرسول ﷺ للقضاء :

أُتي شريـح بِابنَيْ عمّ ، أحدهما أخ لأم ، والآخَـر زوج ، فقـال شريـح : «للزوج النصف ، ومـا بقى للأخ من الأم» ، فرفـع ذلك إلى علي ، فقال : «لم قلت هذا؟» قال : «لأني رأيـت هذا» . قال علي : «للزوج النصف ، وللأخ للأم السدس ، ومابقي بينهما»[1] .

لعلك- يا بني- ترجـح فتـوى علي- رضي الله عنه- لأنه قاض من قضاة الرسول ﷺ ، ولأن شريحا لم يوضح القاعدة أو السبب الذي بني عليه حكمه . أما علي- رضي الله عنه- فقد بدأ باعطاء كل ذي حق حقه كما توجبه الفرائض ، ثم أشركهما وساوى بينهما فيما بقى ، وهذا أقرب للقبول .

(١) وكيـع ٢/ ٢٩٠ .



وتعال معي - يا بني - إلى متعة أخرى فيها الثقة بالنفس، وعشق العدل، والهيام بالانصاف، أدعوك إلى أن تعيشها مع رجل عظيم، لا يعرف العقد النفسية، رجل شجاع لا يقف بينه وبين الحق أحد، بل إن نفسه - ونفس المرء أمارة بالسوء - لا تجرؤ أن تحدثه بغير ما يرضي الله. هذا الرجل - يا بني - هو عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وهو كما تعرف أهل لكل خير، وهو من الذين يشرّف المرء أن يقتدي بهم. إنك ستراه في القصة الآتية قد حكم بحكم اجتهد فيه، ولكنه تراجع عنه، وأخذ بحكم فقيه مشهود له بالعلم والفقه عندما تبين له أنه أصوب من حكمه:

حدث الأصمعي قال: حدثني عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال:

اختصم إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حسّان بن ثابت وخصم له فسمع منهما، وقضى على حسان، فخرج وهو مهموم، فمرّ بابن عباس، فأخبره بقضيته،

فقال له ابن عباس : لو كنت أنا الحاكم بينكما لحكمت لك ، فرجع حسّان إلى عمر ، فأخبره ، فبعث عمر إلى ابن عباس ، فأتاه ، فسأله عما قال حسّان ، فصدّقه ، فسأله عن الحجة في ذلك ، فأخبره ، فرجع عمر إلى قول ابن عباس ، وحكم لحسان . فخرج وهو آخذ بيد ابن عباس ، وهو يقول :

إذا ما ابن عباس بدا لك وجهه
رأيت له في كل منزلة فضلا
قضى وشفى ما في النفوس فلم يدع
لذي إربة في القول جدا ولا هزلا[1]

وليس هذا غريبا على صحابة رسول الله - ﷺ - لأن عينهم كانت على الدين والآخرة لا على الدنيا وما فيها من مراعاة لأبهة النفس ، وتغطية لعيوبها .

وقد يحكم القاضي الواحد - يا بني - حكمين مختلفين في قضية واحدة ، حين يظهر له في المرة

---

(١) المنتقى ٤٨ .

الثانية ما لم يظهر له في المرة الأولى، وقد تكون التجربة والزمن قد لعبا دوراً فعالا في هذا، وقد يكون في انتشار ظاهرة من الظواهر ما دعا القاضي إلى تغيير رأيه. استمع إلى هذه القصة:

كان شريح يطوف، فجاء إليه رجل، فقال: «كيف القضاء في كذا وكذا؟» قال: «كذا وكذا» (قال الرجل): «فورب هذه البنية، لقد قضيت عليّ بخلاف هذا». قال: «فانتزع يده من يده». وقال: «لئن رأيت أني لا أخطئ لبئس ما رأيت»[١].

إن القاضي - يا بني - قد ينغلق عليه الأمر فيخطئ في الحكم، وقد يشع له نور جديد يهديه إلى حق لم يكن ظهر له من قبل، فيحكم اليوم بغير ما حكم به بالأمس، وقد يتذكر فيما بعد أنه سبق أن حكم حكما لم يعد يراه الآن، فيعود حينئذ للحق، ولا يصرّ على ما لم يعد يراه. والرجوع إلى الحق خير

---

(١) وكيع ٢/ ٢١٢، ٢١٣.



من التمادي في الخطأ في الأمور المعتادة بين الناس في حياتهم المعتادة، فما بالك في القضاء وفي الحقوق ![1].

هل فهمت- يا بني- قول شريح: «لئن رأيت أني لا أخطئ لبئس ما رأيت؟» إنه يحذره من الوقوع في خطأ كبير، فيه إثم عظيم، وهو أن يعتقد العصمة في بشر. ولهذا انتزع يده من يده، ومَسْك اليد باليد حنان، وانتزاعها علامة ذعر ورعب ورهبة. فافهم- فتح الله عليك!

والأمثلة عن رجوع القضاة عن الخطأ كثيرة، والقصة الآتية تريك حادثة من هذا النوع، فالقاضي فيها لم تأخذه العزة بالإثم، فيصرّ على رأيه أو يصدّ عن الحق، بل تراجع برجولة مفعمة بالإيمان، محاطة بالخشية من الله، مع المحافظة على قواعد العمل، والحرص على صيانة سمعته. ولم يكن في ذهن القاضي عندما فعل ما فعل إلا العدل

(١) ولعمر رضي الله عنه قول مشهور: «ذاك على ما قضينا، وهذا على ما نقضي» عندما حكم بحكمين مختلفين في قضيتين متماثلتين.

وإعطاء الحق لأصحابه، وهو لم يأنف من أن ينصاع للرأي الصائب، فالحكمة ضالّة المؤمن- يا بني- أينما وجدها التقطها. وسبق أن قلت لك- يا بنيّ- إن الشجاعة ليست فقط سيفا في ميدان، أو مدفعا في طائرة مقاتلة في الجو، أو صاروخا في غواصة في البحر، أو بندقية في يدٍ أصبعها على الزناد. لا، إن الشجاعة هي أن يغلب المرء نفسه، ويجبرها على عمل خير تأباه، واجتناب شر تشتهيه. وقيادة النفس- يا بني- صعبة إلا على ذوي العزم وأصحاب الإرادة الصلبة القوية.

سئل القاضي ابن شبرمة عن مسألة، فلم يصب فيها، فقال له نوح بن دراج: «تثبت فيها، أنظر فيها»، فعلم أنه لم يصب. فقال: «ردّوا عليّ الرجل» فردّوه عليه، فأنشأ يقول:

كادت تزل بنا من حالق قدم
لولا تداركها نوح بن دراج[1]

(١) وكيع ٣/ ٩١.

ان ابن شبرمة كان من القضاة البارزين ، ومع ذلك فقد نظر إلى خطئه على أنه زلة عظمى وسقطة قاضيـة ؛ ولم يكتف بمجرد التراجعِ عن حكم بل سّجل هذا التراجع على نفسه شعراً ، وكأنه يريد له التـوثيق والبقـاء والتـداول ، وهـذا غايـة النبـل والبطولة ، وفيه اعتراف بالجميل ، واقرار بالفضل لمن أنار له الطريق بعد أن كان مظلما ، وأرشده إلى الخير بعد أن كان عنه غافلا .

أي بني !

لقد قلت لك في أول حديثي أن الناس في مجتمع جدك كانوا طيبين خيرين متسامحين ، يكاد تقاضيهم يكون استفتاء كله ، وليس محاكمة ، لأن هذه هي طبيعة الناس في كل مجتمع محدود لم تتنوع عناصره وتتنافر وتتباعد وتتشاحن ، ولقد كان الأمر على هذا النحـو أيضاً في أول الدولة الإسلامية : تسامح ، وتصـافٍ ، وكل يحب الخير للآخر ، ويفضله على نفسه أحيانا طلبا للثواب وكسباً للأجر .

قال القاضي ابن أبي ليلى : «كان الناس يختصمون في الحقوق على الجهل ، وكل واحد يريد أن يدفع الحق إلى صاحبه ، فكان القاضي بينهما مثل المفتي»[1] .

ولتعرف - يا بني - مدى طيبتهم ، وتقديرهم لكلمة القاضي واحترامهم لها ، تأمّل القصة الآتية ثم قارنها بما حدث في أزمنة متأخرة عندما تعقدت الأمور بتوسع المجتمعات ، وتعدد العناصر فيها ، مع فساد الذمم ، والبعد عن الدّين لبعدهم عن عهد النبوة ، قال إياس بن معاوية :

«ما بعد عهد قوم بنبيهم إلا كان أحسن لقولهم وأسوأ لفعلهم»[2] .

والقصة هي :

قال ابن أبي ذؤيب : حضرت عمر بن جلده ، وكان على القضاء بالمدينة يقول

(١) وكيع ٣/ ١٣١ .
(٢) وكيع ١/ ٣٥٥ .



لرجل رفع إليه : «إذهب ، ياخبيث ، فاسجن نفسك» . «فذهب الرجل وليس معه حرس ، وتبعناه - ونحن صبيان - حتى أتى السجّان ، فسجن نفسه»[1].

وأخوف مايخافه ولي الأمر على القاضي ضعف النفس ، واتباع الهوى ، ولهذا حرص الخلفاء الأولون على اختيار القاضي من أهل الورع والتقوى . وكان من رأي الخليفة الراشد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن يكون القاضي مليّا[2] فقد قال لأبي موسى :

لا تستقضين إلا اذا مال ، وعلل ذلك بأن «ذا المال لا يرغب في أموال الناس» .

وعمر - يابني - عالم نفسي ، يعرف طبيعة البشر ، ويستشعر ماتنم به مظاهرهم ، ويعرف الطرق التي يلعب بها إبليس على الناس ، ويدرك

(١) وكيع ١/ ١٣٣ .
(٢) وكيع ١/ ٧٦ .



قدرته على الإغواء، وتزيين الخطأ والميل مع الهوى.

ولعمـــر- رضي الله عنـــه- تجربـة مع أعـوان إبليس، ولكن قوة إيمانه بالله، وقوة إرادته في مقاومة جنـد إبليس، ونباهته في لمح إغرائهم، جعلته في مأمن من مكـائدهم، ومما أرادوا أن يختلوه به من إيقـاعه في رشوة، لقد جعلهم غباؤهم يظنون أن بإمكانهم تلبيس الأمر عليه:

روي عن الشعبي أن رجلا كان يهدي إلى عمـــر بن الخـــطاب كل عام رِجْلَ جزور خاصم إليـه يومـا فقال: «يا أمير المؤمنين، إقض بيننـا فصـلا، كما يفصـل الرجل من سائر الجزور». فقضى عمر عليه وكتب إلى أحـد عمالـه: «ألا إن الهـدايا هي الرشا، فلا تقبلن من أحد هدية»[1].

ولكن قاضيا آخر في زمان متأخر، لم يكن بقوة

(١) وكيـع ١/ ٥٦.



إيمان عمر، وقع في الفخ الذي نصبه له إبليس، بعد أن تغيّر المجتمع الإسلامي وضعف إيمان بعض الناس، وغلبتهم أطماعهم الدنيوية، وجبنوا عن أن يقابلوا شهواتهم بحزم فيرفضوا الإغراء:

«تقدم رجل إلى ابن هبيرة، فقال: «أصلح الله الأمير، إن قاضيك هذا يرتشى» قال: «إرتشَى منك؟» قال: «نعم». فدعا ابن هبيرة بحِلَّة، فقال: «إرشه هذه حتى ننظر يقبلها؟» ففعل، وراح ابن العداء- وهو القاضي المرتشي- على ابن هبيرة فيها فعزله»[1].

أي بني!

لقد تحدّثنا عن كثير من الشروط التي يجب توافرها في القاضي، وهي شروط مثبتة بالتفصيل في مظانّها وهناك شروط أخرى مختلفة ذكرها أناس مجتهدون، وهي لا تخلو من عبرة، ومن هذه

(١) وكيع ٣/ ٢١٥.



الشروط ما جاء على لسان عابد استنصحه صديق له قاض فقد روي أن :

محمد بن بشير طُلِب أن يكون قاضيا، وهو في طريقه إلى من أراد أن يعينه، عرّج على صديق له من أهل الزهد، فاجتمع معه، وقال له: «قد أرسل في الأمير أنه يريد إعادتي إلى القضاء مرة ثانية، فما ترى؟».

فقال له صديقه الزاهد:

«إن كنت تعلم أنك تنفِّذ الحق على القريب والبعيد، ولا تأخذك في الله لومة لائم، فلست أرى لك أن تحرم الناس خيرك، وإن كنت تخاف ألا تعدل فترك الولاية أفضل لك».

قال محمد بن بشير:

«أما الحق فلست أبالي على من أدرته، إذا ظهر لي من قريب أو بعيد». فقال له صديقه



الزاهد: «لست أرى لك أن تمنع الناس خيرك»[1].

ويروى أيضاً أن صديقه العابد قال عندما استشاره:

«أسألك عن أشياء ثلاثة، فاصدقني فيها، ثم أشير عليك بعد ذلك». فقال له محمد بن بشير: «ما هي؟».

قال له: «كيف حبك لأكل الطيب، ولباس اللين، وركوب الفارهِ؟».

فقال له: «والله ما أبالي ما رددت به جوعتي، وسترت به عورتي وحملت به رجلتي».

فقال له العابد: «هذه واحدة». ثم قال له: «كيف (حبك) للتمتع بالوجوه الحسان، وما يشاكل ذلك من الشهوات؟»

(١) قضاة قرطبة ٨٣.

فقال له محمد بن بشير : «هذه حالة والله ما استشرفَتْ نفسي قط إليهــا ، ولا خطرت ببالي ، ولا أكترثت بفقدها» .

قال له العـابد : «هذه ثانية» . «فكيف حبــك لمدح النــاس ، وثنــائهم عليـك ، وكراهتك للعزل ، وحبك للولاية؟» .

فقــال له : «والله ما أبــالي في الحق من مدحني أو من ذمني ، ومــا أسرّ بالـولايـة ، ولا استوحش للعزل» .

فقــال له العـابـد : «فاقبـل القضـاء ، فلا بأس عليك»[1] .

هذه- يا بني- صفــات يجب أن تتــوافــر في القاضي ، فإذا أضيفت إلى ما سبق أن ذكرناه ، فإنها جميعاً تجعل القاضي متميزاً ، وأقرب إلى أن ينجو من الزلل في القضاء ، مؤمّلا أن يكون القاضي الذي في الجنـة . وأن الأمـور التي عددهـا العـابـد كلها-

(١) قضـاة قرطبـة ٧٤ .



كما ترى- مزالق يمكن أن تزلّ بها القدم، ويدخل منها الشيطان، فهي مواقع ضعف في الحصن الذي يجب أن يتحصن به القاضي. وقد عرفها العابد نتيجة تبصر واستقراء وتجربة طويلة، والتبصر والاستقراء من الأمور التي حث عليها الدين في كل أمر، ولقد حث الدين الإنسان على أن يفكر في نفسه وخَلْقِه، وفي خلق السموات والأرض، وفيما يراه في هذا الكون، ليعرف ما عليه لله- سبحانه وتعالى- من الاقرار بالألوهية وتوحيدها له، والطاعة الكاملة، والعبادة المخلصة.

ولقد كانت حياة الرغد في الأندلس في ذلك الوقت، وما كان عليه الناس من النعمة والدعة والرخاء، تستوجب مثل هذه الأسئلة التي ألقاها العابد. إنّ مما سأل عنه هذا العابد يعدّ مفاتيح للعفة والاستقامة، ووسائل يمكن أن يعرف بها ما إذا كان هذا القاضي متميزاً يستحق أن يلي القضاء بجدارة واستحقاق أم لا.



أي بني !

لعله من المناسب قبل أن نختم حديثنا عن القضاء والقضاة أن ننظر إلى بعض المواقف الطريفة التي كان يقابلها القضاة أثناء أدائهم لعملهم، زمن جدك، عندما كان المجتمع صغيراً محدوداً، والصلات بين الناس وثيقة، وليس هناك تعقيد في الحياة :

في كل مجتمع - يا بني - لا بد أن نجد فئة من الناس يقل خوفهم من الله، فينسون ما للآخرين من حقوق، ويعميهم الكسب الحرام عن أن يمشوا في الطريق المستقيم، ومن هؤلاء الذين يتلقفون القادمين من الصحراء للمدينة ومعهم المؤن والمواشي، يقفون في نحورهم ويجبرونهم بالإلحاح المضايقة، على بيع ما معهم لهم قبل أن يصلوا إلى السوق ويعرفوا حقيقة الأسعار مع أن الرسول ﷺ قد نهى عن ذلك :

يُروى أن اثنين في إحدى بلدان نجد



اتصفا بهذه الصفة ودأبا على هذا النهج، واستزلهما الشيطان فاستطعما الحرام عن هذا الطريق، وأصبحا نهمين فيه ولهما قصص كثيرة مع القادمين من البادية، وإحدى قصصهما أنهما اشتريا من بدوي بعيرا، وبعد يوم أو يومين، عندما قدّرا أن البدوي قد أنفق جزءاً كبيراً من ثمن البعير، جاءا إليه وادعيا الغبن وطلبا منه أخذ البعير، وردّ القيمة. وعندما أخبرهما أنه قد أنفق المال أو أغلبه، قالا له: «إذاً تنزل عن عشرة ريالات من قيمته» - وهذا مبلغ ضخم آنذاك - فرفض هذا العرض، فطالباه بالذهاب معهما إلى الشرع، فعرض عليهما أن ينزل عن خمسة ريالات فقط، فرفضا، مما أضطر الجميع إلى الذهاب إلى الشرع.

ذهب أحدهما مع البدوي - لأن ذهابهما معاً سوف يجعل القاضي الذي يعرفهما جيدا يشك فيهما وفي عملهما - وعرضا أمرهما على

القاضي، هذا يطلب رد القيمة وأخذ البعير، أو النزول عن عشرة ريالات. والبدوي يقول إنه أنفق المبلغ، ولكنه ينزل عن خمسة ريالات طائعا مختاراً طيبة بها نفسه. فأدرك القاضي وهو النابه العارف بأمور الحيل وبما عليه المدعي وأمثاله من ضحالة في التقوى، وحرص على المال، فقال للبدوي: «أنت موافق على أن تسقط خمسة ريالات؟» قال: «نعم»، ثم قال للآخر: «وأنت إذا رد لك نقودك مستعد أن تتنازل عن خمسة ريالات؟» قال: «نعم». قال القاضي كل منكما طلبه مستجاب، أنا سوف أشتري البعير، وأعيد لك أيها المشتري القيمة، مع نقص خمسة ريالات، وأنت يا بائع البعير إدفع لي الخمسة ريالات التي وعدت بإنزالها، وتمت الصفقة، وأرسل القاضي البعير ليكون ضمن جمال الصدقة، وبعد عام بيع بمبلغ مجز، وربح بيت المال مبلغا ساقه الله من عنده.



وخرج مشتري البعير، فتلقفه شريكه، وهو متشوق لمعرفة ما انتهت إليه المحاكمة، ولم يشك في أن صاحبه قد كسب القضية لإتقانه الحيل، ولطول تجربته في هذا المجال. ولكن صاحبه أخبره بما صار، وقال له: «ظننت أنّا نتحاكم إلى قاضٍ غافلٍ سوف نلعب عليه، فوجدت تاجراً لعب علينا».

وهكذا - يا بني - لعبت النية السيئة دورها في دحر صاحبها، ولعبت النية الصالحة الطيبة دورها فجلبت لبيت المال مالا حلالا سوف ينتفع المحتاجون به، وأكسبت القاضي عند الله - أجرا عظيما.

وسمع هذا القاضي نفسه عن اثنين احتالا على بدوي في بعير اشترياه منه، لقد أطعما هذا البعير تمراً كثيراً، حتى أرهقا معدته، وأتى على ما في معدته من أكل وسوائل، مما أثر على جهده وقوته، وهنا

طالب المشتريان البدوي بإنزال القيمة، ولأنهما يعرفان أن ما حدث للبعير لا يعد عيباً يوجب إنزال القيمة، اتفقا على أن يتزيا أحدهما بزي القاضي، وأن يجلس في المسجد الجامع، وقد أسدل طرف «غترته» على وجهه، وركز نظره على الأرض ومسك بيده مروحة، وهذا يكفي لأن يظهره بمظهر القاضي الوقور، فلما جاء الرجل الثاني مع البدوي للتقاضي حكم هذا القاضي المزيف حكما قاسيا على البدوي. وانتهى الأمر عند هذا الحد. إلا أن القاضي الحقيقي سمع بما حدث فأحضرهما، وطلب منهما انصاف البدوي والتعهد بعدم العودة إلى مثل ما فعلا وإلا أدبهما أدبا يكفي أهل المدينة كلها أن يرتدعوا به. فنفذا ما أمر به القاضي.

ويروي عنه أيضاً أنه قبل توحيد المملكة، وعندما كان لكل مدينة حاكمها، كان أحد الحكام جالسا بعد صلاة العصر في



أحد أيام رمضان ، وكان هذا القاضي يجلس بجانبه كالمعتاد ، وكذلك المستشارون ومنفذوا الأحكام والأوامر يجلسون بجانبه ، إذ جاء رجل من عامة الناس أو من أقلهم . وقال للحاكم : إن فلانا أخذ بعيري وإنه نحره وهو الآن يسلخه . وأنه يستنجد بالأمير لرفع الظلم عنه واسترداد حقه ، فغضب الأمير غضبا شديدا وقال : يحدث هذا وأنا في أوج قوتي ، وفي رمضان ، والله لأقطعن رأسه ، إذهب يا فلان وأت به . ولعل للصيام- وقد تكون الحادثة في الصيف- وحدوث الأمر في آخر النهار ، دخلا في غضب أمير البلدة .

وهنا تدخل القاضي النابه ، وسأل الأمير أن يسمح له بأن يعالج الأمر ، فسمح الأمير . فقال القاضي للرجل بلطف : «لم أعهد أن عندك جملا ، ولا أعرف أنك تملك ثمن دجاجة ، فكيف أصبحت مالكا لجمل

بين عشية وضحاها. قال الرجل بسذاجة: «لقد خرجت من بلدتي البارحة إلى البلدة الفلانية، فمررت على بعض البدو وكانوا مقيمين في المكان الفلاني، فغافلتهم وسرقت منهم هذا البعير». فقال القاضي: إذًا المأخوذ أُخِذ، والمسروق سرق، والأفضل أيها الأمير أن ترسل معه من ينظر إن كان بقي من الجمل شيء يُعْطَى إياه لأدامه.

قد يخطر في بالك- يا بني- أن تقول وماذا عن حق البدو أصحاب البعير الأصليين؟ لقد كان القاضي وأهل ذلك الزمن يعرفون أن هؤلاء البدو لا بد أنهم قد أخذوا أباعر من غيرهم، وربما أخذوها من أهل تلك البلدة، لأن الأمور حينئذ كانت بين الناس إما ناهب أو منهوب، والقوي هو الرابح. وكانت الحرب سجالا بين البادية والمدن حينذاك، ولا يمكن لجيل اليوم أن يتصور في ظل الأمن الذي نعيشه كيف كان الناس يعيشون في قلق دائم وذل مستطير.



إنك عندما تقارن أيضاً حال هؤلاء بحال آخرين في أزمان قديمة مضت، وقرون خلت، ستجد كذلك العبرة واضحة، والنتائج ظاهرة، ومما يروى:

باع مزيد المديني دابّه، فلما كان من الغد أتاه النخاسون (بائعو الدواب) طمعا، فلما نظر إليهم قد أقبلوا نحوه قام يصلي، فأطال الصلاة، فقالوا له، وهم لا يعرفونه: ياعبد الله، قد ذهب يومنا- وأطمعهم طول قيامه، وكان أحسن الناس سمعا، وأظهرهم هديا- فانفتل عن صلاته، وقال: ما بالكم قد قطعتم عليّ صلاتي! فقالوا له: قد ظهر بالدابة عيب، قال: وما عيبه؟ قالوا يخلع الرسن. قال: لا أعرفه بهذه الصفة، فماذا تريدون؟ قالوا: خصلة من ثلاث: إما الحطيطة وإما رد الثمن وأخذ الدابة، وإما اليمين بالله أنك ما تعرف هذا فيه.

فقال: أما الثمن فقد فرقناه، وأما

الحـطيـطة فما تُمكننـا ، وأمـا اليمـين فإني ماحلفت قط على حق أو باطـل ، فأعفوني منهـا ، فإنها أصعب الخطط عندي . قالوا : مامن ذلك بدّ ، فانطلق بنا إلى الوالي .

فقام معهم ، فلما بصر به الوالي ضحك ، وقال : ماجاء بك يا أبا اسحق؟ فقص عليه القصة ، فقال : قد أنصفك القوم . فقال : أعـز الله الأمير ، أحلف وأنا في هذه السن وضرب على لحيته وبكى ، وقال : ماحلفت على حقّ ولا على باطـل . والتـوى ، قال : لا بد ، فالتوى ساعة (تثاقل ولم يفعل) . ثم قال : أصلح الله الأمير فإن حملت نفسي على اليمـين وحلفت وأعنتـوني بعـد . قال : أوجعهم ضربا وأحبسهم !

فلما سمـع ذلك استقبل القبلة ، وأقسم بأغلظ الإيمان وقال : لقد كان عندي دواب كلها تخلع أرسانها فكان الحمار يقوم فيعيدها



عليها ويصلحها بفمه قليلا قليلا ، فضحك الــوالي حتى فحص الأرض برجليـه وبهت النخاسون ، وعجبوا منه وانصرفوا عنه[1] .

(١) نوادر القصص عند العرب : ١٠٩ .

الشاهي والقهوة

أي بني!

تمام الصحة إحدى متع الحياة، وكل شيء يمت لها بصلة يجذب الإنسان، ولهذا رأيتَ أنّنا في حديثنا نحوم حولها، نقترب منها حتى نكون في وسطها، ونبعد ولا نبعد، بل نكون في أرباضها وضواحيها. في حديثنا عن الأدواء كنّا في وسطها، نجول في ثناياها، ونسبر أغوارها[1]، والآن ونحن نتحدث عن الشاهي والقهوة لا بد أن تستفيد الصحة من حديثنا. فالشاهي والقهوة مادتان تدخلان داخل الجسم، فتؤثران التأثير الذي أودعه الله فيهما. ولعل أصل استعمالهما كان لهدف غير الهدف الذي تبلور إليه اليوم. فاليوم أغلب الاستعمال لأجل الكيف، والكيف قد لا يتماشى مع متطلبات الصحّة، بل إن الاسراف في تناولهما يكاد يكون معروف الضرر، سيء النتيجة، وهذه هي صلتهما بالصحة، أو على

(١) راجع «أي بني» ١/ ٢٢٣، ٣/ ١٧٨.



الأصح بهدم الصحة .

وهذا موضوع بالنسبة لك الحديث فيه مقبول ، لأنك تحبّ الشاهي ، ومن أحبّ شيئاً تمتّع بذكره . وأنا أجاهدك في ألا تكثّر السكر في الشاهي ، حتى لا يضيع طعم الشاهي ، وحتى لا يزيد وزنك بشيء لا يضيف لبدنك قوّة ، وليتك ، يا بنيّ ، تتعود على شربه بدون السّكّر ، ففي هذا إقلال للضرر من قلة «الحلاوة» ، ثم هذا يساعدك في ألا تشرب منه إلا القليل .

وحبذا - يا بنيّ - لو قاومت شربه بين الوجبات ، لأن شربه بينهما ضرره واضح ، فبجانب دخوله على معدة خالية ، وفي هذا ما فيه من الأذى ، لأنه يتدخل في عصارة المعدة التي تحتاج إليها للطعام ، فإن تحريك المعدة للطحن ، ولا طحن ، يضرّ بها . ومفعول الشاهي والقهوة وهما منبهان على معدة خالية يضاعف مفعولهما الضار .

ولم أذكر هذا - يا بني - لأعطي تقريرا عنهما ،



ولكني أرمي في هذا البحث إلى المقارنة بين ماكان عليه النّاس في الماضي وماصاروا إليه الآن لقد كان شرب الشاهي محدوداً ، وكان لشربه احتفال ، والذي يستطيع تناوله منتظما مرتين أو ثلاث مرات في اليوم يعدّ من المحظوظين . وبعض الناس قد لا يشربه إلا مرة واحدة في اليوم . وقد يتناوب أحيانا على وعاء الشاي ثلاث دفعات من النّاس ، يقطف زهرته الأولى الرّجال ، ثم يزاد ماء ويعاد للنار لتخرج منه ما لم تخرجه النار الأولى ويشربه النساء . ثم يزاد ماء ويغلى ويزاد سكرا ثم يعطى للصغار . ولعل الله أراد بالصغار خيرا إذ لا يصلهم منه إلا «رائحة الشاهي» ، فالغليتان الأوليان أخذتا ما فيه من طعم ولون ، ولم يبق فيه إلا رائحته التي توهم أنه شاهي ، ولعل مكسب الصغار منه السّكر .

لهذا- يا بني- كان للدعوة للشاهي عند الناس معنى ، وكانت هذه الدعوة مكلفة لأن الداعي يتعهد بإرواء الشاربين ، والكرم يجعله يجبرهم على الشرب إذا أظهروا أنهم قد أخذوا منه كفايتهم ،



فيحلف أيمانا مغلظة ، ويحتال عليهم في أن لا يبقوا في «إبريق» الشاهي شيئا ، وفي الغالب يسرّون من هذا الإلحاح ، لأن حياءهم يوجب عليهم أن يتظاهروا من أول الأمر بالاكتفاء ، ولكنهم يدعون الله من قلوبهم أن يصرّ «معزّبهم» أو داعيهم ويلحّ ويحلف ، فيتظاهرون بالاكتفاء أكثر فأكثر ، فيصرّ هو أكثر وأكثر ، وكلّ يعرف ما بنفس الآخر ، ويعرف الداعي أن ما يظهره مدعووه من الرفض غير حقيقي ، وهم يعرفون أنّ الداعي يعرف ذلك أيضاً .

وقد يكون المدعوّ - يا بني - «ابن نعمة» كما يقول التعبير الدارج ، فإذا قال : «بس» علامة الاكتفاء ، وألحّ الدّاعي عليه ، فإن هذا المدعو لا يكون مسرورا بهذا الإلحاح . وبسبب هذا الإلحاح المتوقع قد يعمد هذا الضيف إلى الاكتفاء بأول «فنجان» لعل هذا يخفف عنه ضغط الإلحاح على شرب المزيد :

دعا أحدهم آخر ، لقدومه من سفر ، ولم يكن معه غيره ، وكان الوقت ضحى ، فصبّ له الشاي ، وبعد أن اكتفى الضيف أخبر المضيف أنه اكتفى . وطبعا لا يمكن أن يسلّم المضيف بهذه السهولة ، فسأله : ألم يكن السّكّر كافيا؟ وقبل أن يسمع الجواب زاد السّكّر في الشاي ، فلما شرب الضيف الفنجان بعد زيادة السّكّر ، أعاد رغبته بعدم المزيد ، وقبل أن يسمع منه المضيف ، صبّ الفنجان ، وأردفه بكلمة : «لقد صببته ، فاشرب» ، فشرب المسكين . ثم أبدى مؤكدا عدم رغبته في المزيد ، فحلف المضيف أن يشرب ، فشرب . ولكنه في هذه المرة أبقى الفنجان في يده ولم يعطه للمضيف . فلما يئس المضيف من أخذ الفنجان قال للضيف : «والله أن الشاهي سوف يرمى» ، فقال الضّيف : «يرمى على الأرض ولا يرمى في بطني» .



وبهذا- يا بني - أعتق الله الضيف من أن يكون بطنه قربة شاي لا يحتاج إلى أكثره . ويذكرني إمساك الضيف الفنجان بيده بقصة أخرى طريفة :

قدم وفد من الأمريكان الذين يعملون في الزيت إلى الرياض، للسلام على الملك عبدالعزيز رحمه الله . وكالعادة صبت لهم القهوة فشربوا ، وكان بينهم شخص جديد على تناول القهوة العربية ، ولم يتنبّه إلى عادة هزّ الفنجان علامة الاكتفاء ، فاستمّر «صبّاب» القهوة يصبّ له ، ولما لم يجد الأمريكاني منفذا للهرب من فناجين القهوة المتتالية ، انتهز غفلة السّاقي ، فأدخل الفنجان في جيبه واستراح من عنائه . ولعل من رآه يفعل ذلك ظن أنه أخذه ذكرى ، ولكنه عند الخروج أعطاه لأحد «الخويا» الواقفين عند الباب .

أما اليوم- يا بني - فالناس يشربون الشاي طوال النهار ، يشربونه في المكاتب ، وفي الدكاكين ، وفي



المعارض، وفي البيوت . قبل الأكل وبعده ، وقليل منهم من ينظم أمر تناوله . ولم يعد لدى الناس ذلك الشوق للشاهي ، ولا ذلك النّهم الذي كان له في الماضي ، وذلك لتوافره ، ولأن كل مضيف يقدّمه ، وهو الشراب المشترك الذي قلّ أن يطرق البيت ضيف دون أين يكون هو أول ما يقدّم له ، أو الثاني بعد القهوة العربية .

وللشّاي طعم لذيذ ومذاق خاص في أمسيات رمضان ، وذلك لطول النهار الذي حرم المرء منه فيه بسبب الصيام ، ولهذا فإن الصائم يبدو وكأنه ينتقم من هذا الحرمان في الليل ، فلا يكاد ينتهي من الافطار حتى يسارع إلى شرب الشاي ، ويكاد لا يتوقف عن شربه إلا للتراويح أو لصلاة القيام . وبعض الناس يعاني من صداع في رمضان ، خاصة في اليوم الأول واليوم الثاني ، وهم يقولون إن هذا الصداع إنما حدث بسبب «خرمة» الشاي ، بينما يقول العارفون إنه من نقص السّكر في الجسم بسبب الصّيام . ولكن الجسم ، صنعة الحكيم



الخبير، سرعان ما يتأقلم مع الصيام فيصبر الناس عن شرب الشاي، ويذهب عنهم الصداع.

والحديث- يا بني- عن القهوة والشاي في بلادنا طريف في تاريخه وتطوره، وفي اختلاف الأجيال في تعاملها معهما. ولا يبدو أن هناك من يعرف بالتحقيق، وعلى وجه الدقّة، متى دخلا في حياة ابن الجزيرة، ولهذا فالحديث عنهما لا يبدأ عندي بتاريخ محدّد، لأنه من الصعب عليّ- أنا على الأقل- أن أحدّد البداية وصاحبها الذي كان أول من أدخل الشاي إلى بلادنا، إن هذا يحتاج إلى بحث دقيق واستقصاء علمي ليس هذا محلّه.

على كل حال إن طريق دخول الشاي قد يكون مختلفا عن طريق دخول القهوة، فالشاي ربما جاء مع الحجاج من جنوب آسيا، أو عن طريق التجّار الذين ذهبوا للهند وما وراء الهند من البلدان الآسيوية. أما القهوة فأغلب الظن أنها جاءت من اليمن، مارّة بالمناطق الجنوبية من المملكة، ثم انتشرت في أجزاء الجزيرة العربية الأخرى.

وممـا لا شك فيـه- يا بني- أن القهـوة اليمنية، المسمّاة بالـبريّـة، مخالفـة للبحرية التي تجلب عن طريق البحـر من الـبرازيـل وغـيرها، فالأولى لها قصب السبق عند ابن الجزيرة العربية الذي أصبح ذواقة لها، يميز بين رديئها وجيدها، ويعرف بدقة درجـة تحميصهـا، ومـا إذا كان قد تم بالـطريقة السليمة نتيجة وضعها على نار هادئة. وتقليبها بيد ماهرة لا تغفل ولا تكل، وتعرف مواقع الحرارة من «المحـماسـة». وتعـرف أيضـاً هل بردّت في إنـاء الخوص المعد لذلك، وهل عُرِّقت عند الحمص، وهل «دقّت» كما ينبغي بيد مجرب أو أنها سحقت بيد مهتزة لحداثتها، أو لعدم عنايتها.

ويعرفون بسهولة هل «طبخة» القهوة جديدة، أو أنها «ثنوة». وهل هي «بائتة» من أمس أو هي طريـة حديثة قد عملت لتوها. وهل تركت حتى تركد أو استعجل في صبها، وهل «الهيل» قد قلب قلبة كاملة أو أكثر، أو أن أطرافه- وهو المطلوب المحمود- قد زبّدت فقط ثم أبعدت الدلة عن النار



قبل أن يقلب الهيل . وهم يعرفون كذلك أن وضع الليفة ونوعها يلعبان دوراً مهماً في طريقة صبّها وفي نتيجة صبّها ، وفي صفاء ما يصبّ منها .

وقد قتل أمر حِلِّ القهوة أو تحريمها بحثا ، وانتهى البحث إلى القول بحلها ، وبهذه المناسبة ، وعن نظرة الأمم إلى حل القهوة أو تحريمها هناك نسخة من مذكرات القنصل البريطاني الذي كان في بلاط أحد سلاطين آل عثمان ، فقد وصف القنصل في مذكراته ما يجرى في البلاط عند استقبال الناس ، فقال : «إنهم يقدّمون شرابا أسود ، يسمى (الكافا) ، يساعدهم على كفرهم» ، ولا أدري ماذا سيقول هذا القنصل لو عاش ليرى قومه في بريطانيا وجيرانه في أمريكا اليوم وهم يشربون «فناجينها» طوال النهار الواحد تلو الآخر . ومن المؤكد أن هذا الذي يشربونه منه ليس أسوأ مما يشربون من غيره مما يؤذيهم ويزيد في عصيانهم .

ويبدو أن دخول القهوة إلى حياة الناس في الجزيرة قد سبق دخول الشاهي إليها ، ولعل هذا

راجع إلى قرب موطن القهوة من الجزيرة وبعد موطن الشاي منها ، فاليمن بلا شك أقرب من الهند أو سيلان ، مع أن البن قد يكون في الأساس جاء إلى اليمن من مقاطعة «الكافا» في افريقيا على الساحل الملاصق لليمن .

وقد لعبت القهوة دوراً مهما في سمر الناس ، وفي اكرامهم للضيف ، لقد فاخروا بها ، وأبرزوا فضل المعتني بها . وكعادة الشعراء منهم عندما تصل العاطفة عندهم إلى قمتها صبوها في شعرهم سلسبيلا عذبا ، وبنوا عليها قصصا ممتعة ، حقيقيّة وخياليّة ، وكما خصص الناس جزءا من نهارهم للعمل فقد استعانوا على سمرهم في الليل بالقهوة وبصنعها على نار يوقدونها أمامهم ، لقد أنشأوا لشرب القهوة عادات وبنوا عليها تقاليد ، وسنّوا سننا ، ونظموا في القهوة أشعارا ، وجعلوا لها أدوات تغنّوا بها أحيانا ، لأنها عندهم وسيلة شرب لهذا الشراب الغالي ، وتنحصر هذه الأدوات عادة في المحماسة ، ويدها ، والمبرّد ، والنقيرة أو المدقة ، أو



المطحنة ، والهاون «النجر» .

لقـد كان أهل الكيف يختارون البن- يا بني- اختيـارا دقيقا ، ويحرصون على أجود أنواعه . وفي وقت مضى كانت الأصـول المـرعيـة تقتضي ألا «تحمس» تحمص القهوة إلا أمام الضيف ، وبهدوء وبطء متنـاه ، وتكمل خطوات صنعها إلى مرحلة شربها بدون عجلة ، وفي هذا إشارة إلى الرغبة في إبقـاء الضيف مدة طويلة ، للتمتـع بحضـوره وصحبته . وقد يشعر الضيف بأنه جرح جرحا بالغاً فيما لو قدمت له قوة معدة قبل مجيئه ، أو «محموسة» قبل مجيئه . و «حمس» القهوة فن لا يتقنه إلا شخص متمرّن مدرّب . وغالبا ما يقوم به المضيف بنفسه ، ولا يعتمـد فيـه على أحـد ، إلا إذا كان من كبـار عائلتـه ، ولـدى من يعتمد عليه من اتقان صنعها ما لديه هو .

والخطوة التي تلي «الحمس» في «المحماسة» هي نقـل القهوة منها إلى «المبرّد» وهو وعاء توضع فيه القهـوة لتـبرد ، وهـو بحجم يتسع لأكبر «حمسة»

يمكن أن «تحمس» ، وعـادة ما يكون من الخوص الغض يؤخذ من قلب النخلة . ويُعتنى بأن يكون ملونا ألوانا تجعله جذابا . وهذا يساعد أيضاً في ألا يسـوّده البن ، مما يظهره بمظهر المتّسخ ، وهو أمر لا يتناسب مع الأوعية التي تختص بالأكل أو الشرب .

فإذا برد البن المحمص نقل إلى الهاون «النجّر» ليهـرس فيـه ويسحق بالدرجة التي يختارها الذي «يدق» القهوة ، وهذه العملية تماثل «حمس» القهوة وهي درجـات تخضـع للاختيار والتفضيل ، وهي أيضاً مما يتفاوت الناس فيه ، وهرس البن في الهاون يتم بطريقـة فنية ، ويكون له رنة خاصة ، ونغمة يتعمدها الذي يسحق البن ، فهو يضرب ضربتين على البن والثالثة يلمس بها طرف الهاون ، ليعطي صوتا من المفروض أن يجلب الضيوف في الأصل ، وقد استمرت هذه العادة ، وأصبح «هارسوا» البن يتفـاخـرون ويتفـاضلون بالنغمة التي يختارونها ، وأصبحـوا يتفننـون فيهـا ، وقـد يكـون لبعض



«الـدقّـات» صوت منعش وقـوي، يخترق جدار الصمت في الصحـراء في الليـل البهيم، فيؤنس الوحدة، ويدل على «المأنس»، ويقود إليه في هذا القفر، وهو صوت مبهج للضّال والجائع والظمآن و«الخرمان»، لا يعد له صوت، ولا غرو أن اعتنى به، كما يعتنى «بالنوتة» الموسيقية. ولهذا الصوت في شعـرهم مكـان رحب لما يلعبه من دور في جلب الضيـوف وهديهم وتسليتهم. فهو دعوة كريمة، ونغمة مبهجة، ولسان رطب.

يوضع البن المحمص المطحون في دلة القهوة، ليغـلي بالمقدار الذي يريده «راعي» القهوة. ودلة الغلي هذه مخصصة لهذا الشأن، وهذا دورها الذي لا يخلط به غيره، وهي لا تستعمل لسواه، وتصبر هذه الدلة على النار، وعلى ما تحدثه بها من سواد، ويصبـح ذلـك جزءاً من شخصيتها، ولهذه الدلة شكـل خاص يساعد على أداء الجانب العملي من عملية صنع القهوة، فأسفلها واسع بحيث تتحمل الـدلـة الكميـات التي يحتـاج إليها، وقد لا يُعتنى

بمـظهـر الدلة الخارجي كثيراً لصعوبة هذا، فهي عرضة للهب النار طوال الوقت. والعناية الكبرى تصرف في العادة لداخلها الذي يحتاج إلى «رَبٍّ» «جلي» بين آن وآخر و «رَبُّها» مهمٍ لأنه يؤثر على الطعم حسنا ومذاقا ويعطي منظراً رائقاً للبن إذا صب.

وإذا غليت القهـوة المحمصـة إلى الحـد الذي يختاره صانعه وضعت جانبا وأبعدت عن النار لتركد وتصفـو، وهي خطوة يهتم بها أصحـاب «الكار» و«الكيف»، وبدون ذلك تبقى عند تقديمها غير صافية في المذاق واللون. وفي هذه الأثناء، وحتى تصفو «يدق» «الهيل» أو «حب الهال» كما يسمى في بعض البلدان العـربيـة، فإذا «زِلَّت» أي نقلت القهوة من دلة الغلي إلى دلة «الصَب» وضع عليها من الهيـل ما يغطي وجه الدلة، ووضعت على نار خفيفة، فإذا ما بدأت أطراف الهيل تزبد وقبل أن تقلب قلبة كاملة، تبعد عن النار، وتوضع ليفة تمنع تسرب الهيـل من الدلة إلى الفنجان عند الصب.



وبهذا تصبح القهوة جاهزة للصب والتقديم .

ولا يقف الفن في وضع الهيل في القهوة عند هذا الحد ، بل إن وزنه يلعب دوراً كبيراً في الاختلاف بين قهوة وقهوة ، والعارفون يحرصون على وزن نسبة الهيل مع القهوة ، لأن الهيل إذا زاد نفر منه بعض الناس ، وإذَا قلَّ أوجب الملاحظة . وعلى الغالب فإن زيادة الهيل ليست منتقدة ، على الرغم من أنها في كثير من الأحيان تُضيع لذة القهوة ، الا أنّ الضيوف يقدِّرون الهدف من وراء الزيادة ، ويضحُّون بالطعم الذي يحبونه من أجل هذا الهدف الذي لا يخرج عن أن يكون زيادة في الاكرام.

ودلة الصبّ يُعتني بها شكلا ومظهراً ، فشكلها يتحتم أن يكون جميلاً متناسقاً يميل إلى الطول ، مع تناسب في أجزائها ، ولا بدّ أن يكون لونها صافيا ، فيه لمعان تبدو معه وكأنها «عين الديك» ، وأشهر الدّلال في الجزيرة هي دلّة رسلان وهي تصنع في الشام ، وكان رسلان صاحب المصنع يدمغها بدمغة تؤكد أنها من صنعه .

ويمسك صبّاب القهوة الدلّة بيده اليسرى ، والفناجين بيده اليمنى ، فهو لا يمد للضيف إلا اليد اليمنى ، لأن إعطاء القهوة تحية ، والتحية سلام ، ولا يمدّ للسلام إلا اليد اليمنى . فهي اليد المخصّصة للتكريم . ولا يجوز أن تمدّ اليد اليسرى بحال من الأحوال حتى لو كان المقدّم للشخص شيء آخر غير القهوة ، بل يجب أن تكون يد المعطي وكذلك يد الآخذ هي اليمنى . وهي أيضا اليد التي يؤكل بها ويشرب . وإذا احتاج أحد الآكلين إلى أن يشرب ماء أو لبنا وهو يتناول الطعام وكانت يده اليمنى لا تساعده على التناول لأنه يأكل بها ، وقد علق بها بسبب ذلك من آثار السمن ما لا يساعده على مسك كأس الماء أو اللبن ، أخذ هذا الكأس باليسرى ، وعضده من أسفله باليمنى مقلوبة ، بحيث يرتكز الكأس أو وعاء الشراب على ظاهر الكف اليمنى ، وهذا رمز يشير إلى مراعاة الاعتبار الاجتماعي هنا ، وأن الأصول لا بد أن تبقى معتبرة ومنفذة شكلا إن لم يكن تنفيذها فعلا .



وعندما يرى السعودي في بعض الأفلام التي تدور وقائعها في البادية، والتي يتم تصويرها وإخراجها في بعض البلدان العربية، صبّاب القهوة يصب والدلّة في يمينه، والفناجين في شماله يمدها للضيف يصاب بالقلق ولا تعدم أن تسمع من أحد المشاهدين، ممن لم يسيطر على شعوره كلمة «كسر» داعيا على الصباب بكسر يده لارتكابه هذا الخطأ الفادح والعيب الفاضح.

وفنجان القهوة لا يهدف إلى التسلية وتحلية السمر فقط، ولا إلى إطفاء «الخرمة» فحسب، لا! إنه يتعدى ذلك إلى ما هو أخطر، إنه يتعداه إلى إطفاء نار الثأر فقد يُغيْر قوم على قومٍ فينالون منهم على غرّة، ويأخذون منهم شيئاً كثيراً نتيجة المفاجأة، أو قد يُقتل فرد مهم أو عزيز في سفر أو في ظرف من الظروف، ويجتمع القوم للتشاور والتدبير، فيرفع المطالِب بالثأر، أو رأس العشيرة، فنجانه، وهو أول فنجان يصب في الغالب ويقول: «من يشرب فنجان فلان»، إن هذا يعني أنّ أي فرد

من الحاضرين يأخذ الفنجان ويشربه، يصبح المتعهد بقتل القاتل، وغسل هذا العار الذي يبقى يصرخ حتى يمحى بدم القاتل.

أننا لو تتبعنا الأدب الشعبي الحديث في الصحراء لوجدنا الكثير من القصص الممتعة في هذا الأمر، وهي قصص تتماثل في هدفها وأسبابها، ولكنها تختلف في مجرى تنفيذها، وفي الطريق التي سلكتها أحداثها، وفي الزمن الذي استغرقته هذه الأحداث، وفي الحيل التي دبرها أبطالها، وفي الخدع التي حاكوها، وفي المفاجآت التي انطوت عليها، وقد قيل في هذه القصص شعر، وفي هذه القصص ما هو مصنوع، ومنها ما زيد فيه وحوّر في وقائعه، ومنها ما نسج على منواله، قصص أخرى خيالية، نسجت فيها أمجاد قوم قد لا يكون لهم مثل تلك الأمجاد التي نسبتها لهم هذه القصص.

والناس على كل حال في صب القهوة يختلفون، فبعضهم يملأ الفنجان، وبعضهم يقلل «الصبه» ويكرر المرات، ولهؤلاء مغزى، ولأولئك مثله.



فالذين يملؤونه يرمون إلى الاكرام وهو أمر قريب إلى الذهن ومقبول ، والذين لا يملؤونه يرمون إلى التشرف بتكرار الخدمة ، ويرون أن عدم فعل ذلك قد يوحي بالرغبة في انهائها وهو ما لا يجوز . ثم إن القهوة ليست غذاء بل هي للتسلية ، أو للقضاء على الخرمة ، أو «عدل الرأس» الذي أماله طول وقت الحرمان منها :

تروى قصة عن أحد من عرفوا بالصراحة ، وهي قصة خاصة بعدم ملء الفنجان فعندما قدم له صاحب القهوة الفنجان ، ووجد ما فيه من القهوة يصل إلى منتصفه فقط ، أشار إلى «بريم» في أعلى الفنجان ، وهو خط وضعه صانعه للزينة . قال «المتقهوي» للمضيّف : وهذا البريم «وش سنعه» ؟ أي مادوره؟ ، وما هي فائدته؟ «إن صانعه لم يضعه عبثا ، وإنما وضعه ليملأ الفنجان إليه .

سارت هذه القصة بين الناس ، وأصبحت هذه

الكلمـة تردد استمـلاحا ومزاحا. وأصبح الناس يعرفون أنك بمجرد أن تشير بأصبعك إلى البريم الذي في الفنجان يَفهم من يصب القهوة أن قصدك هو ملء الفنجان.

لقد بدأت ألمح في وجهك، يا بني، بعض الملل، فقد بدأت تتثاءب والتثاؤب يُعدي، فإذا تثاءب أحد الجالسين تثاءب من يراه، ولا أدري ما السبب؟ هل التثاؤب نفسه له قوة التأثير مما يجعل الإنسان الآخر يتثـاءب فيقلِّد مرغـماً؟ أم أن هنـاك إشعاعا خفيا ينطلق من غُدَّة أو خلية في وجه المتثائب أو في فمه إلى وجه مقابله أو فمه؟ أم أن هناك غازاً غير مرئي، يتسرب طائـراً في الهــواء، فيصيب الجـالســين بالتثـاؤب. إنـك تستـطيع أن تنيم شخصا بتعمد تكـرار التثاؤب وهذا هو ما يزعجني - يا بني - فقد أصبحت أخشى أن أتثاءب مثلك، وبهذا تتحول جلستنا إلى حفلة تثاؤب، شهودها ابريق الشاهي المنهك وفناجينه الفارغة المتعبة، ودلة القهوة الفارغة وفناجينها «المسطورة» بجانبها وكأنها أرنب ترضع



أطفالها ، وعدد من النوى يدل على أنه كان هناك تمر .

إن علمي بدوام تثاؤبك يجعلني أسرع بالحقنة الإسعافية ، وهي ليست إلا قصة لها مفعول قوي يتناسب مع عمق مَلَلِك ، والقصة ، يا بني ، قريبة مما نحن فيه ، وفيها تبكيت على عدم صبرك على « فيتامين » الفوائد التي أسوقها إليك معلومات جاهزة تخزنها في ذهنك إلى وقت قد تحتاجها فيه ، وأنت بلا شك لا تدري متى يأتي هذا الوقت ، ولا متى تحتاج إلى مثل هذه القصة ، وإليكها :

سافر أحد أقربائك من نجد إلى الحجاز مع جماعة في سيارة « لوري » ، فطرأ خلل على السيارة ثبّتها في مكانها عدة أيام ، انتظاراً لمرور سيارة تساعدهم على جلب قطعة « الغيار » التي يحتاجونها . وهذا الذي حدث للسيارة وللركب أمر معتاد ، وكان يحدث للسيارات دائما في تلك الأيام لرداءة الطريق وسوء صيانة السيارات ، والجهل باستعمالها

على الـوجـه الأمثـل ، وربـما طالت مدة الانتـظار لقلة طارقي الـطريق ، ولتبـاعـد المسـافـات بين المدن ، ولم تكن المواصلات اللاسلكية متاحة آنذاك في مثل هذه المفاوز ، ولم تكن المحـطات أيضاً متقاربة ، وما على المـرء في مثـل هذه الأحـوال إلا الانتظار ، وحسن التدبير في صرف الماء والمؤونة . ولكن الناس والصحراء « أصحاب » لا ينفر أحدهما من الآخـر ، فسرعان ما يتبين هؤلاء السَّفْر حياة الصحراء ، وتطرب أنفسهم لذلك . ولم يكن لمجموعة الركاب هذه تسلية إلا لعب الــورق ، فانقسمـوا إلى مجمـوعـات ، كل مجمـوعـة أربعـة أشخاص ، ولكن مجموعة واحـدة نقصهـا واحد ، ولم يسـتطع قريبك هذا أن يكمل العدد لأنه لم يكن يعرف لعب الـورق ، فقد شغلته الدراسة والمنافسة مع المتفـوقـين في فصله ، عن اتقـان مثل هذه الملهيات أو حتى معرفتها ، فاختاروا بدلاً منه



معاون السائق ، وألقوا على عاتق قريبك عمله ، فصار يحطب ويصنع الشاهي ، ويعد للطبخ ويغسل الأواني ، وصار المعاون أغلى عند الركاب من قريبك الراكب المحترم ، وكدّ قريبك وكدح ، وكأنهم أرادوا أن يعاقبوه على جهله بلعب الورق بهذا العمل المضني ، وأن يكرموا المعاون لمعرفته بهذه اللعبة القاتلة للوقت ، والتي لم تكن تخلو من تمرين للفكر وشحذ للذهن . على أي حال ، لقد قام قريبك بدوره خير قيام ، لأنه كان قد تدرب من قبل على صنع القهوة والشاي ، فبيّض لذلك الوجه كما يقال .

لقد ذكرتني هذه القصة بقصة لا أودّ أن أحرمك من سماعها ، لأنها صورة من الماضي ، وقد لا تتكرر ، ومن حقها مادامت قصة واقعية قد حدثت فعلا أن تسجّل ، وهي على كل حال جديرة بالتسجيل :

سافرت مجموعة من طلاب البعثات

الـــذين يشكلون دفعـة من خريجي المعهـد العلمي السعـودي بمكـة ، ومدرسة تحضير البعثـــات من جدة إلى مصر ، بالبـــاخـــرة «تالـودي» في منتصف الستينـات الهجـرية وكان هناك ثلاث بواخر مشهورة تعمل بين جدة والسـويس هي : «تالـودي» و «زمزم» و «الـطائف» ، وتصادف أن هذه المجموعة ضمت فئتـين من الـطلاب ، فئـة سبق أن سافـــرت إلى مصر في عام سابـق ، ودرس أفـرادهـا في جامعتها في القاهرة ، ونجحوا وجاءوا لزيارة أهلهم في مكة المكرمة ، وفئة تخرجت من المـرحلة الثانوية حديثا ، وهي تغـادر لأول مرة جدة في طريقهـا إلى مصر لتلتحق بالجـامعـة ، ولعل بعض أفراد هذه الفئـة لم يروا البحر ، أو لم يروا باخرة قبل ذلك ، لأن النزول في تلك الأيام من مكة إلى جدة لم يكن سهـلا ، ولا يقدم عليه إلا من احتاج إلى ذلك .



ركب أفـراد الفئتـين البـاخـرة معـا ، واستولت الدهشة على أفراد الفئة الجديدة ، وأخـذوا يذرعون الباخرة وهي راسية جيئة وذهابا ، يطلون من كل منحنى ، ويقفون في كل زاويـة وكـأنهم فريق مفتشين . فلما آن أوان رفع المرساة (الهلب) أسرعوا ليصطفوا على حافـة مؤخـرة الباخرة ، لينظروا كيف تبحر ، ولو رأيتهم - يا بني - لرأيتهم وكأنهم غرانيق صفت على غصن ، ثم بدأت الباخرة تدخـل إلى وسط البحـر ، والـزبـد يترامى خلفهـا ، وأدهشهم المنـظر ، واستمـروا يتابعونه على الرغم من نصح الناصحين بأن هذا سوف يؤدي إلى إصابتهم بدوار البحر .

أمـا الطلاب القدامى فقرروا أن يلعبوا الورق ، فلا شـيء يقتـل الوقـت إلا هـو ، وأخـذوا يبحثـون عمن يكمل المجموعات المطلوبـة ، وكان المكان الذي اختاروه هو سطح مستودع البضائع لاستوائه ولقربه من

المستشفى وغرف النوم . وقد حاول ثلاثة من الطلاب الجدد أن يلعبوا الورق أيضاً ، وذهب أحدهم ليبحث عن رابع (ما أغلى الرابع - يا بني - في لعب الورق) ليكمل العدد ، فلم يعد ، فذهب الثاني يبحث عنه ، فلم يعد ، ثم لحقهم الأخير ، وسرعان ما تبين لزملائهم أن كل واحد من هؤلاء الثلاثة قد أصيب بدوار البحر بمجرد تجاوز الممر وأنه قد «تكردس» وألقى نفسه على سريره ، وفي حالة لا يعلمها إلا الله من جراء هذا الدوار .

لقد بقي هؤلاء الثلاثة في الغرفة يومين لا يتحركون منها ولا يخرجون ، لا يهمهم أكل ولا شرب ، ولقد وجدوا الموت هيّنا أمام ما يقاسونه من دوار البحر ، لم يعد يهمهم منظر زبد البحر الذي تحركه الباخرة وكأنه ذيل ثوب عروس يسير خلفها ويسحب . ولقد كانوا بسبب الدوار الذي أصابهم يغبطون الخدم الذين يمرون ببابهم كل

صباح ليغسلوا الممرات. ولقد كانوا يتساءلون في نفوسهم دون أن ينطقوا: كيف يستطيع هؤلاء الوقوف على أقدامهم والباخرة تتمايل كالسكرى يمينا ويسارا؟ لقد نسي الطلاب المشي بسبب قعودهم واضطجاعهم المتواصل في هذين اليومين. ولقد كانوا يتطاوحون، ويمسكون بأي شيء تقع عليه أيديهم عندما يضطرون إلى الوقوف أو المشي، وأصبح بعضهم «يتوجّد» علي اليابسة، ويتغزل فيها قائلا: ما أجملها وأبهاها بالمقارنة مع البحر.

وفي اليوم الثالث شعر هؤلاء الطلاب ببعض التحسن، أو أوحوا لأنفسهم بذلك، أو خجلوا من زملائهم وغيرهم، وكان الجوع قد أمضّهم، والضعف قد أضناهم، لأنهم لم يتغذوا الا بالسوائل وهي لا تمكث طويلا في بطونهم. فقرروا أن يذهبوا إلى المطعم لتناول طعام الغداء، فأخذتهم

رهبتان الأولى من طول المسافة بين «منامتهم» ومقر المطعم في حين كانت أرجلهم لا تقوى على حملهم طويلا . والثانية من أنهم لم يتعودوا على الجلوس إلى الموائد لتناول الطعام، ولم يعتادوا الأكل بالشوكة والسكين . وكانت هناك مشكلة حلّوها منذ البداية، وتتمثل هذه المشكلة في توقعهم أن يشاركهم مائدتهم أجانب يكون من بينهم نساء (ياللهول!) إنْ هم ذهبوا للمطعم مبكرين ولكنهم حلوا هذه المشكلة بأن طلبوا من أحد طلاب السنة الماضية أن يخبرهم بموعد انتهاء الغداء قبل انتهائه بنصف ساعة . وأملوا أن يكون أغلب الناس قد انتهى من تناول الطعام وغادر المطعم قبل هذا الموعد .

ثم بدأوا يخرجون من مقرهم كما يخرج اللص من البيت الذي سرقه، وأخذ كل منهم يتأكد من أنه ليس في الممرات أحد،



فهـو يخرج رأسـه من الباب ، ويديره يمينا ويسارا ، ثم يتبعه بكتفه ، ثم قدمه الأولى ثم الثانية ، ثم يسير خطوات ، ويعد سيء الحظ من يعـود بخطواتـه إلى الـوراء عنـدما يرى شخصا مقبلا . ولقد عبروا المَمَرَّ وهو لا يزيد عن عدة أمتار وهم يشعرون كأنهم ساروا أميـالا : يد على الجـدار ، ويـد على مَمْسَكٍ وضـع لحبال السفينة ، ثم تعود اليد الأولى تتحسّس شيئاً تمسك به ، حتى وصل أولهم إلى المـطعم ، والتفت خلفـه ليتأكد أن بقية المجمـوعـة تسـير خلفه ، فرآهم يتمايلون ، فأطمـأن ، وهكذا دلفوا جميعا إلى المطعم ، وجلســوا على الكــراسي ، وأتى النـادل ، وسألهم عما يريدون أكله ، وسرعان ما أدرك بتجربته أن عليه أن يختار لهم ، فأخذ يقترح عليهم ، وكانوا يوافقون على اقتراحه قبل أن يكمله ، ثم ذهب ليحضر لهم الطعام بدءًا بالحساء ، لقد شعر هؤلاء الطلاب أنهم قاموا

بمجهـود جبار ، وأقنعوا أنفسهم أنه مجهود يزيد عما كان يجب أن يقوموا به . وبينما هم ينتـظرون طعامهم شعروا فجأة كأن البحر قد أصبـح فوقهم وأن السـماء قد أصبحت تحتهم ، وبدأت رؤوسهم تلـف ، وعيونهم تدور سريعة في محاجرها ، وبدت نظراتهم زائغة ، ثم بدأوا يتخيلون أن تمايل الباخرة قد زاد ، وأنه في ازدياد مضطرد مما أخافهم ، فعلا قلوبهم الهلع . لقد مر وقت قصير قبل أن يأتي الحسـاء ، ومـع ذلـك فقد اقْتُرِحت خلالـه اقتراحات صامتة ، نقلتها النظَرات التائهة ، لقد شـعر كل واحـد منهم أن زميله يشجّعه على الانسحاب ، وسرعان ما اتفقوا على أن يبدأ الانسحابَ أقربُهم للباب ، فهو أولاهم بالتقهقر ، لأنـه أقلهم لفتا للنظر ، ففـرح هذا بترشيحهم له ليكـون أولهم في التقهقـر ، ولم يصـدق أذنيـه ، وجـاءته قوة طارئـة ، فانسل كالشعاع ، ثم تبعوه واحدا



واحدا ، كأنهم خرز سبحة انقطع خيطها . فابتلعهم الممر في ثوان ، وعادوا إلى قواعدهم سالمين ، ورموا أنفسهم على سررهم فخالوها النعيم المقيم ، ونسوا الجوع أمام الهول الذي سببه جلوسهم على الكراسي في المطعم انتظارا للطعام .

ولا تسل - يا بني - عن النادل فقد وجد الغرفة خالية عندما عاد ، ووجد الكراسي تنعي الجالسين عليها ، ووقف مشدوها ، وخيل إليه أنه يسمع ضحك السفرة والكراسي والشوك والسكاكين والجدران منهم وعليهم . وأنا لا أظن - يا بني - أن هذه كانت هي أول تجربة يمر بها النادل ، وربما كان عجبه أشد لو عاد فوجد زبائنه ينتظرونه .

على كل حال لقد كانت سعادتهم لا حدود لها عندما وصلوا إلى اليابسة في مصر وذلك على الرغم من أنهم بقوا يوما أو يومين

بعد ذلك وهم تحت وطأة الشعور بأن الأشياء مازالت تدور . وزاد من سعادتهم أنهم ركبوا حافلة من السويس إلى القاهرة سارت بهم على طريق مرصوف ، وهم الذين لم يركبوا من قبل شيئاً مثل هذا ، ولم يروا طريقا مرصوفاً .

وأعود الآن - يا بني - مرة أخرى لألفت نظرك إلى ما ألاحظه من بداية عدم صبرك على سماع ما يلقى إليك ، لذلك فأنت في حاجة إلى أن تُنمِّي ملكة الصبر عندك ، لأن الزمن لا يسير على وتيرة واحدة ، فيوم تمر الأمور سهلة رخيَّة ، ويوم تمر صعبة مزعجة . وقد تتوالى الصعاب ، وعلى الإنسان أن يكون مستعداً ، ومتعودا على تحمل صدماتها والا أطاحت به أوّل صدمة ، وأضعف لطمة إذا وجدته هشا لينا . وإن التعود على مقابلة الصّعاب والتصّدى لها بثقة ورزانة لا بد أن يكون وأنت لا تزال غضّ الاهاب . أمّا إذا تجاوزت مرحلة الشباب وأنت ما زلت لم تتعود على الوقوف في وجه



الصعاب فإن الأمر يعسر عليك. وإن صبرك على الملل - يا بني - لا يعد شيئاً يذكر مقابل الصبر على ما قد تأتي به الحياة، وإليك هذه القصة التي تريك كيف كان يُبنى الرجال من أمتك العربية:

دخل رجل على سلم بن قتيبة الباهلي، فكلَّمه في حاجة، ووضع نصل سيفه على أصبع سلم بن قتيبة، وجعل يكلمه في حاجته، وقد أدمى أصبعه وسَلْم صابر. فلما فرغ الرجل من حاجته وانصرف، دعا سلم بمنديل، فمسح الدم من أصبعه وغسله، فقيل له: ألا نحيّت رجلك، أصلحك الله، أو أمرته برفع سيفه عنها، فقال: خشيت أن أقطعه عن حاجته[1].

إن حديثي عن الشاهي والقهوة لا يحدث لك جرحا يسيل منه الدم، فأين أنت - يا بني - من مستوى ابن قتيبة؟ المتوقع منك أن تكون أكثر جَلَدا

(١) عين الادب والسياسة السياسية، ص ١٩٨.

في طلب المعـرفة . نحن كثيراً ما نقول لكم ليتكم مثلنـا ، فنحن كنـا وكنا ، وهذا القول فيه نقص ، لأنكم إن حاولتم أن تكـونـوا مثلنـا ، فلا بدّ أن تقصروا عنا ، والأولى أن نقول لكم : كونوا أحسن منا ، فإذا حاولتم ذلك فستكونون على الأقل مثلنا . يُروى أن رجلا سأل ابنه : من تريد أن تكون مثله؟ قال : مثلك يا أبي ، قال له والده : لن تكون ، لأني حاولت أن أكون مثل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ولم أستطع أن أصل إلا إلى ما تراني قد وصلت إليه .

على أي حال ، أعـود إلى حديث الصبر ، وقوة التحمـل ، والمـروءة التي أبـداهـا سلم في قصتنـا السابقة ، لقد تحمل الأذى حين صبر على خروج الدم من أصبعه ، لكي لا يقطع طالب الحاجة عن حاجتـه ، لأنـه لو لفت نظره للأمـر المزعج الذي أحدثه سيفه لذهل عما جاء لأجله ، والمروءة توجب إبعاده عن هذا الموقف .

إن هذا يؤدي بنا - يا بني - إلى موقف مماثل ، هو



موقف عزيز ابن خاله . إن عزيزا هذا شخصية تستحق أن يَكْتُب عنها من يسجلون التراث ، وقصته قصة طريفة ، وهي تتلخص في الآتي :

يروى أن خال عزيز هٰذا احتاج إلى رفيق سفر يعتمد عليه في مهمة خطيرة لا يقضيها إلا الرجال المعدودون ، فأراد أن يختبر الذي سوف يختاره من بين شباب القبيلة لمرافقته ، وأراد أيضاً أن يختبر الناقة التي سوف يعتمد عليها في هذه الرحلة المتميزة . أما الناقة فكانت الطريقة لاختبارها أن يبرِّكها فوق بيت نمل شرس ، فإن هي قلقت من تسلق النمل على جسمها ولم تتحمل عضّه ووخزه ، تركها لأنه لا يعتمد عليها ، وقد وجد الناقة التي ترضيه بعد أن اختبر عدداً من النوق ، عرّضها لهذا الاختبار القاسي .

وبقي بعد ذلك اختبار الشاب الذي سيرافقه في رحلته ، لقد اختار له أداة اختبار عجيبة ، يختبر بها قدرته على الصبر وقوة

التحمل ، وهي أداة غريبة ، سهلة وصعبة . لقد كان القمل في تلك الأيام يعبث في الرؤوس ، ويرتفع ويلعب في الشعر ، وكان هذا شيئاً معتادا ، خاصة في فصل الشتاء عندما يهاب الناس قرب الماء لشدة البرد . وكان لبعض الخدم أو غيرهم ممن ينتدب لمهمة مكافحته في الرؤوس عمل منظور في «فلي الرأس» . والمهمة هذه تقتضي أن يطأطىء المفلي رأسه للفالي وقتا غير قصير . ليبحث فيه عن القمل فيقتله ، وعن « الصّبيان » ، وهي بيض القمل ، لينسلها من الشعرة التي ألصقتها القملة بها .

لقد اختار خال عزيز ، شابًّا من بين عدد من الشباب ليفليه ، وجلسا في الشمس ، لأنها تساعد على تحريك القمل من مكامنه ، إما لأنها تدفئه ، فيخرج من هذه المكامن لملاقاتها ، أو لأنه يهرب من ضوئها وحرها إلى مخابئ أخرى مظلمة .



المهم أن الشمس تساعد الفالي على رؤية القمل بسهولة.

وبعد أن اختار خال عزيز أقوى الشباب أجساما، وبدأ هذا الشاب «الفلي»، ورأس خال عزيز محني بين يديه، غرس خال عزيز مرفقه في فخذ الشاب، وأخذ تدريجيا يضغط على فخذه، وحين أخذ الشاب بعد فترة يصرخ من شدة الألم أعفاه الخال من المهمة واستبدله بآخر. واستمر الأمر بهذه الصورة يتكرر مع عدد من شباب القبيلة، يوما بعد يوم، إلى أن جلس عزيز بن خاله[1] يفلي رأس خاله، وبدأ الاختبار، وأسلم الخال رأسه لعزيز، وبدأ الخال يغرس مرفقه في فخذ عزيز، واندمج عزيز في مهمته في الفلي، غير آبه بالمرفق التي تنغرس في فخذه، ولم يتأوّه، أو ينبس ببنت شفه،

(١) الخال لا يعرف أن عزيز ابنه، والقصة طويلة ولكن ما يهمنا فيها هو الجزء الخاص بالصبر والتحمل.

واستمر الحال على هذا المنوال إلى أن رأى الخال الدم يطفر من الفخذ، حينئذ أوقف العمل، فقد وجد ضالته، فعزيز نجح في الاختبار، بجدارة وامتياز، ونال العلامة الكبرى التي وضعها الخال. وبدأ الاستعداد للرحلة الطويلة الخطيرة، بأدواتها المختارة الرفيق الصبور والناقة الجلدة.

قد تحتج، يا بني، بأن هذه القصة تبدو وكأنها خرافية رمزيّة لا تؤدي الغرض وأنّه لا بد من قصة حقيقية، لهذا سوف أروي لك قصة حدثت فعلا قبل عهد الملك عبد العزيز- رحمه الله- يظهر فيها مباشرة الصبر بشكل واضح:

كان هناك جيش لجب، يزحف إلى إحدى المناطق وقد جمع له وفيه من رجال المدن والقرى والبادية عدد عظيم، ولقد كان من المعتاد في مثل هذه الحالة أن يتنادى الناس في المنطقة المهاجمة للجهاد، وأن ينفروا لمجابهة الخطر وصدّ الاعتداء، وأن

يخرج من كل مدينة أو قرية عدد من المقاتلين يتناسب مع كبر المدينة وصغرها ومصالحها المهددة ، وأن يلتقوا للتنسيق في مكان يتواعدون فيه ، وأن يوحدوا قيادتهم ويرسموا الخطط ، ويتسقطوا الأخبار ، ويبعثوا «السبور» الجواسيس .

على كل حال لقد سار الجيش المدافع لمقابلة الخصم وتصادم الجيشان وتطاحنا ، في معركة ضارية دخلت التاريخ لعنفها ، وأصبحت مشهورة ، وكعادة الناس في جزيرة العرب في ذلك الوقت أصبح يؤرخ بها ، فيقال سنة كذا ، مشيرين إلى هذه الحرب الضروس .

وانتهت المعركة ، وانسحب الجيش القادم المعتدي منتصرا . لوحدة القيادة فيه ، ولتشتت الرأي بين قواد الجيش المدافع ولأسباب أخرى مختلفة . وبدأ رؤساء الفرق التي تجمّعت من المدن والقرى ، بعد

«كسرتهم» يتفقدون موتاهم وجرحاهم الملقاة جثثهم وأجسامهم في الميدان، ويتعرفون عليهم، وكان هناك رجل جريح، ملقىً تحت أثلة في الميدان، واسْمع حديثه - يا بني - عن نفسه، عما أصابه قال:

أصبت في المعركة، ووقعت، ورآني فارس من الأعداء، وكأنه أخذ على عاتقه أن يقضي عليّ، فلم يكفه ما أصبت به من ضعف نتيجة ثلاث إصابات مدمّرة، عانيت من النزف منها، كانت الضربة الأولى من الخلف، لقد أخذت ذبابة السيف طريقها من الكتف الأيمن إلى أسفل الظهر، أي من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي من خريطة الظهر، وصنعت أخدوداً عميقاً. وتلقيت مرة أخرى ضربة على وجهي كان اتجاهها خلاف الأولى أي من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي من خريطة الوجه.

وتلقيت ضربة ثالثة بيدي فسطحتها،



وأخـذت أزحـف تجاه الأثلة ، واقتـطعت غصن أثل في طرفه «هدب» أثل ، واحتميت بالأثـلة خلفـي ، وكـلما كرّ الـفـارس عليّ هششت الحصان بالغصن ، فجفل وعصى صاحبـه . وكان الفارس ينتخي ، ويقول : «ياثارات كذا» مشـيراً إلى معـركة كنا فيها المنتصرين عليهم .

ويبـدو أني نزفت كثـيراً ، وبدأت قواي تخور وأحسست بدنـو الأجـل ، وقلت في نفسي استـدرك الشهـادة ، فرفعت أصبعي بها ، مستسلما ، أرددهـا فرآني عدوّي رافعا أصبعي ، فأدرك ما أنـا فيـه ، وسمعته وهو يبتعد يقول : «نجوت» ولم يعد بعد ذلك . فبـقـيـت ملقـى تحت الأثلة ، حتى انتهت المـعـركـة ، وانـتـهـى القتـال ، وسكت الضجيـج ، وارتفـع العجـاج ، وانقشـع الغبار ، ولم يبق إلا حشرجة مصاب أو أنين جريح ، أو ميت صامت ، أو جسم ينزف ،

وجثث ملقاة يميناً ويساراً، متقاربة أو متباعدة، وبقايا مبعثرة، وخيل معرقبة أو مكلومة.

وعندما عاد إليّ وعيي فوجئت برجل يسألني من أنت؟ ومن أي غزو أنت؟ وعرفت أن وقت الفرج قد حلّ، فقلت: «أنا من غزو المدينة الفلانية». فقال: «هل معك ركوبة» قلت: «نعم، جَمَلٌ، صفته كذا وكذا». فأحضر جملي، فقلت له: «أوسرني» عليه، وأربطني جيداً، فهو يعرف طريقه، فربطني، وبدأ الجمل المسير نحو بلدتي، وعلى الرغم من أن المسافة بين هذا المكان وبلدتي لا تزيد عن بعض يوم، إلا أن الجمل قطعها في ثلاثة أيام، لقد كان يسير على هواه، فهو إن شاء مشى، وإن شاء رعى، وإن شاء برك يرتاح ويجترّ، وهو سيد نفسه، بل وسيدي، يأخذ الاتجاه الذي يريده، تجذبه خضرة روضة إلى اليمين،



وتقوده أخرى ليعود إلى الخلف ، وما قطعناه في ساعات ، فقدناه في مثلها ، وأنا لا حول لي ولا قوة ، وأسلمت أمري إلى الله ، وبقيت انتظر الفرج تبعا لمزاج الجمل وما يأتي منه ، وكانت جروحي في اليوم الأول مؤلمة ، ولكن ألمها في اليوم التالي كان أشد وأنكى ، وأصبح في اليوم الثالث فوق طاقة البشر .

وقد وصل الألم قمته عندما دخل الجمل المدينة ، وكان الوقت ليلا ، وكان الجمل يحتك في كل «عائر» ومنحنى ، وكلما فعل ذلك أغمى عليّ من شدة الألم وتفتّح الجروح ، ثم أصحو ليعود الجمل إلى تكرار عمله هذا فأعود إلى الأغماء ، حتى وصل إلى بيتي وبرك أمامه ، وبقيت فوق ظهره لا أطيق حراكا ، إلى أن أذّن المؤذن لصلاة الفجر ، فأطلت زوجتي ورأت الجمل فقالت لوالدتي : «يخلف الله علينا فلانا ، فلقد جاء الجمل وحده» فقالت الأم : «إنزلي (واجعفي) عنه

الشّداد ، أي انزليه ، لا بد أن الجمل المسكين يعـــاني من ظهـره من طول المـدة التي بقي الشـداد مشدودا عليه» . (لاحظ- يا بني- قوة الإيمان ، والعقل الرزين عند هذه الأم ، إنها تفكر في تلك اللحظة في شيء ترحم به هذا الحيـوان ، إن موت ابنها لم يذهلها ولم يصرفهـا عن النـظرة الإنسـانية إلى الحيوان المسكين . لهذا كافأها الله ببرد البشرى التي سرعان ما جاءتها بأن ابنها ما يزال حيّا يرزق على ظهر البعير) .

يقول الرجل : لقد فوجئت والدتي وزوجتي عنـدما وجدتاني حيا فأنزلتاني من على ظهر البعير ، وجاءتا «بحْجرى» أي بقدر كبير ، و «فوحتــا» أي غلتـاَ فيـه ماء ، ثم جاءتـا «ببشاكير» فوط كبيرة ، فوضعتاها في الماء ، الذي يغلي في القدر ، وأخذتا تنظفان الجراح وكأنهما تغسلان لحما قديداً ، ثم حشتا الجراح بالمرِّ والصبر والحلتيت المعد لذلك ، وبقيت



في فراشي على الأرض ثلاثة أشهر ، قبل أن أقدر على الخطو على قدمي .

إن الحث على الصبر والتحمل يقودنا إلى الحديث عن الخط وتحسينه وما يستلزمه ذلك من التأني والصبر وطول الممارسة ، إنك لكي يحسن خطّك لا بد أن تتحمل كتابة صفحة على الأقل في اليوم الواحد ، ولكنك تمل فتكسل ولا تصبر ، ولو ترك الأمر لك لقدمت واجب الأمس على أنه واجب اليوم ، إن بينك وجيلك «وقفة نفس» وعداء مستحكم مع الخط وتحسينه ، مع أن الخط وتحسينه - يا بني - صورة لارتقاء الذوق ، وبالخط الحسن يعرف رقي كاتبه ، وقد يعرف به أيضاً عمق ثقافته وبعدها . ولا تقنع نفسك - يا بني - بقول من يقول : «الخط ما قرئ والباقي صِنعة» ، أن هذه الصنعة هو ما نريدك أن تتقنه ، إن النظر إلى جمال الخط هو مثل النظر إلى الصورة الجميلة ، إن جمال الخط يُدرك بالمِران ، وفي اتقانه راحة نفسية لصاحبه وقارئه ، وفي ذلك توفير للوقت كذلك ، وضمان



لتحاشي الخطأ والالتباس . لقد كان جيلنا - يا بني - يُعطَى واجبا جانبيا يكون أحيانا بيتيا ، سعيا وراء اتقان الخط وتحسينه . وكان أولياء الأمور ينتهزون العطلة الصيفية فرصة لالحاق أبنائهم بمدارس خاصة بتعليم الخط . ولعل عددا من جيل أبيك يذكر بالخير مدرسة الحلواني في باب الزيادة بقرب الحرم بمكة المكرمة . ولقد كان المسؤول عنها - رحمه الله - يكتب بعناية شديدة «مشكا» أي سطراً في أعلى الصفحة ثم يعطيه للطالب لكي يقلده مكرراً هذا السطر إلى نهايتها ، وكان يصحح له ما يكتب عدة مرات .

لعلكم تتنبهون - يا بني - إلى هذا الجانب الجمالي المهم فتستفيدون منه . فالقلب ينبض بالاعجاب عادة إذا رأى صاحبه خطاً جميلا .

إن الخط الرديء قد يضيع أيضا على صاحبه منافع وحقوقا فقد يضيع عليه إن كان تلميذا درجات في الاختبار كان يمكن أن ينالها لو كان خطه جميلا ، ولكنها تفلت منه بسبب خطه الرديء ،



إن جزءاً كبيراً من الاجابة قد يضيع على الطالب بسبب جهاد المدرس في سبيل أن يتمكن من قراءة ماكتبه، ولا يلام المدرس على ذلك لأن كثرة الأوراق وطول الاجابة، خاصة في الجامعات لا تعطيه فرصة قراءة الاجابة مرتين. ولكن الخط الجميل مريح، يبهج المصحح، ويجعله في مزاج يسمح بالكرم فيِ إعطاء الدرجة، ويكون أقرب للتسامح، وهو بَشر - يا بني - يحتاج إلى جو مريح يساعده على الحكم الصائب. فتذكر هذا واحرص على جمال الخط تكسب من ورائه منفعة، واحرص على البعد عن رداءته لكي لا يصيبك بسبب ذلك ضرر، إن النفع قد تكسبه بحسن الخط، وقد تعاني الضرر من سوئه.

وما دام الحديث - يا بني - حديث الصبر والجلد والتحمل فإني سأضرب لك على ذلك المزيد من الأمثلة، وهي أمثلة قريبة شائعة عند أهل جيلي، وهي مناسبة لما نحن فيه من الحديث تماما.

لقد عرف الملك عبد العزيز - رحمه الله -



بقوة التحمل وشدة الصبر والجلد ، حتى إنه عندما ثار الرصاص في محزمه في إحدى الوقائع ، وظهر جزء من أمعائه ، تلقف هذا الجزء بيده ، وردّه إلى مكانه ، وتحمل وتجمل وأعلن - إمعانا في تضليل العدو - زواجه في تلك الليلة ، يقول شاهد عيان بعد أربعين سنة من هذا الحادث أنه ما زال يتصور بياض الأمعاء ، والملك يعيدها إلى مكانها .

ولعلك رأيت في برنامج تليفزيوني قبل ما يقرب من عشرين عاما أحد أطبائه - رحمه الله - يروي أن الملك كان ذات مرة يلعب بالرمح في معركة وهمية ، فإذا بهذا الرمح يخترق قدمه . وارتاع الطبيب وهو يفحص القدم ويحاول أن يخرج منها الرمح ، وفكر في اعطاء الملك مخدراً يساعده على عمله ، فاختصر الملك عبد العزيز - رحمه الله - له المهمة ، ومد يده وانتزع الرمح أمام دهشة الطبيب والحاضرين .



وفي حادثة ثالثة، وبينما كان الطبيب يكشف عليه- رحمه الله- لاحظ أن هناك رصاصة منسيّة اتخذت لها مقراً تحت الجلد، وأراد الطبيب أن يخدر الموضع لينتزعها، فطلب منه الملك عبدالعزيز أن يفتح الجلد بالموس، فلما فعل الطبيب، ضغط الملك على جانبي الرصاصة، فقفزت وخرجت، وكفى الله الطبيب شر العمل على معالجتها.

هذه- يا بني- صور تريك التحمل من أناس استعدوا للحياة بما فيها من صعوبات، ووطدوا أنفسهم على تحملها، واعتبروا التعود عليها عدتهم في مواجهة ما قد يأتي به الزمن من مشاق، فالحياة الطويلة لا بد أن يتعرض الإنسان فيها إلى ما لا يحب، وعدته لها هي حسن استعداده، وملكاته التي تساعده على المرور بالمشكلات، دون أن تترك هذه المشكلات في جسمه أو نفسه خدوشاً.

ان زمان الجيل الماضي وما قبله كان زمان كدح وكد، والثمرة لا تأتي إلا بعد تعب، وقد تتساوى



الثمـرة مع هذا التعب أو تقصر عنـه ، وقـد تأتي سريعة بعده أو متأخرة عنه .

أعرف شخصاً - يا بني - كان عند والده في إحدى مدن المملكة الكبرى قبل خمسين عاما سيارة وكان الوالد يستعملها بين هذه المدينة ومدينة أخرى مجاورة أو يستفيد منها للخـروج مع أصـدقائه لبعض المنتزهات . وقد أحصى ابنه المرات التي أتيح له نفسه أن يركب السيـارة في خمس سنوات ، فوجدها خمس مرات لا غير . أي أنه ركبها في كل سنة مرة ، والحاجة وحدها هي التي جعلته يركبها في هذه السنة مرة واحدة .

أمـا اليـوم - يا بني - فجيلكم يرى البقـالـة أو الصيدلية رأي العين ، فإذا احتاج إلى أحداهما ركب السيارة ، وأصر على أن يوقفها أمامها تماما ، لكي لا يتعب حين يضطر إلى أن يسير خطوتين ، وإذا لم يجد مكـانـا منـاسبـا أوقفهـا أمام سيارة أخرى أو خلفها ، أو بجانبها مكونا صفّا ثانيا ، حتى لو أدى

ذلك إلى سد الطريق ، ومن اعترض عليه تذلل له ورجاه أن يصبر دقيقة حتى يقضي عمله ، أو أمسك خناقهُ ظلما وعدوانا . لقد كان من الواجب أن يكون جيلكم - يا بني - أكثر نشاطا من جيلنا وأقدر على الصبر على المشقات لأنه أحسن من جيلنا أجساما وأكثر منا صحة وعافية ، للتغذية التي توافرت له ، والعناية الصحية التي حظى بها .

أرجو ألا تكون - يا بني - قد مللت من تكرار هذه القصص الداعية إلى الصبر ، إن عليك أن تتذكر دائما البيت الآتي :

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته
ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

لعل التكرار بعد ذلك يأتي بالنتيجة التي أقصد إليها .

نعود مرة أخرى - يا بني - إلى فنجان القهوة الذي يكون أحيانا وسيلة للأخذ بالثأر ، ان القصة التي سأسرد على مسامعك تفاصيلها الآن هي قصة



تريحــك وتمـتعــك ، لأنها تتفق مع ما تعمله أنت واخوانك وأنتم في مثل سن أبطال هذه القصة . وان أمر أبطالها وهم صغار مثل أمر الكبار الذين ذكرت من قبـل أنهم يعينـون فنجان قهوة يشربه المستعد للأخذ بالثأر :

يدخـل أحد الصغار في عداء مع آخر ، فيـلاحظ زملاؤهما هذا ، ويكادون يطيرون فرحـا وهم يترقبـون اشتعال شرارة الحرب بينهـما ، وسرعــان مايصبــح العـداء ناراً مضـطرمة . ولا يترك الزملاء النار للصدف لكي تشعلها ، بل يأخذون على عاتقهم ألا تنـطفئ هذه النـار ، فهم يغذونها بالحطب والنفخ عليه لكي تـزداد اشـتعالا فيتلذذون بالنـظر إلى لهيبها واستعارها وما تلتهمه من حطب ووقود .

إنهم يغذون هذه العداوة حتى يوصلوها إلى مرحلة المواجهة بين المتعاديين ، وهذا يعد أول النجاح ، لأن الميدان قد اختِير ، وأرض

المعركة قد عُيِّنت، والسلاح قد تَحَدَّد. وقد اقتربت النار من الحطب بوجود الاثنين متقابلين، ومع كل منهما فريقه الذي يحمّسه لكي لا تخمد الشرارة، ثم يتقدم واحد من النظارة، فيأخذ حفنة من تراب، ويبسط بها يده أمام الخصمين، ثم يأخذ عودا ويبله، ويغرسه في هذا التراب، ويخاطب الاثنين، يقول: «من هذا في وجهه؟» أو «من هذا في وجه أمه؟» زيادة في الاستفزاز، وأحيانا يستعمل كلمات نابية لا يليق نطقها هنا، والهدف من هذه العملية هو استنفار كل قوى الشر عند الخصمين، وجعلهما في موقف لا يسمح لهما بالتراجع أو الاستكانة، والا لبسهما العار، ثم لا يلبث أحد الخصمين أن يتقدم ويضرب اليد الممدودة بترابها في اتجاه وجه الخصم، ويقول: «في وجه فلان» أو «في وجه أم فلان؟» وقبل أن يتم الجملة يكون خصمه قد انقض عليه، يحدوه

الغضب، ويدفعه طول الترقب.

وتبدأ المعركة، وهي مصارعةٌ الرابح الأول فيها هم المتفرجون. ذلك أن الرابح من الخصمين يكون ربحه في الحقيقة محدوداً، هذا بالاضافة إلى ماقد يكون الرابح قد أصيب به من أذى ومايتنظره من أخذ بالثأر في جولة لاحقة، هذا الثأر الذي يحرص المشاهدون على غرس نواته قبل أن يفترق الجمعان، وينصرف الخصمان. إن هذه المعركة الماثلة فرصة لاتعوض عند المشاهدين المحرضين، وحبل يجب أن يوصل ولاينقطع، فهم قد تعبوا من قبل في اذكاء نار الخصومة حتى وصلوا بها إلى هذه المرحلة، فإن أَفلتت فرص التحريض المبكر على الثأر الآن فقد لاينجحون في إثارة العداوة مرة أخرى.

وينصرف القوم، ولاحديث لهم إلا ماجرى في ميدان المعركة وتفاصيله، وقد



يُزاد في هذا الحديث وقد يُنقص، وقد يكون هذا وذاك عفوا أو قصدا. وتتناقل الألسن هذا الحديث، ويَملأ به المتحدثون وقت الفراغ الطويل، ويصل الحديث أو أطراف منه إلى «الثَّورين» المتناطحين فيعجبهما شيء منه أو يغضبهما شيء آخر. أما المنتصر فقد عوضه عن جراحه وآلامه ما يسمعه من ثناء، وأما المنهزم فيشحذه ما يسمع للجولة القادمة، وأما المنتفعون من اللعب على هذين العنصرين فإنّهم ينتظرون بشوق صحيح معركة أخرى ثأرية قادمة.

ولا شك - يا بني - أن صورة المعركة بين الخصمين وتفاصيلها قد أعجبتك، ولا بد أنك شعرت بالمتعة وأنت تتصور الأكف تصافح الخدود، واللكمات تكال للبطون والجوانب والظهور والرأس يميل من قوة الضربة، والجذع ينحني من شدة «الرفزة» الرفسة، ولا بد أنه قد أعجبك «تطاوح» هذا الذي كاد يقع، وترنّح ذاك

الذي كاد يفقد توازنه . ولا بد أنه قد أعجبك أكثر من أي شيء آخر تلك الركلة التي أطلقها أحدهما برجله على «شاكلة» ، الآخر ، حتى استقرت قدمه على موقـع الكليـة ، «فانعـوى» وانحنى كأنـه «مكروب» رش بمحلول مميت . وتكوّم كأنما ينوي أن يدخل في قمقم ، ولقد اختلط شعورك مثل القوم المتفرجين ، فجزء منه اعجاب ، وجزء رحمة ، وجزء خوف من أن يكـون المضروب قد مات من شدة الضربة على هذا الموقع الحسّاس .

ان ما حدث وما يماثله - يا بني - باب واسع لعب في البادية دوراً خطيراً ، فرّق اخوة أحيانا ، وشتت قبائل أخرى . يبدأ الأمر بلعب أطفال ، يغريهم على اللعب شعورهم بقوة الشباب ، والرغبة في التدرب على العـراك ، استعـداداً للمعارك الحقيقية عندما يكبرون ، وتفرض عليهم حياتهم التي هيأهم الله لها أن يخوضـوها . ويغريهم ضوء القمر الفضي الذي يجعل الأرض ميدانا له ألسنة اغراء لا تحصى تناديهم أن هلمـوا ودوسـوا صفحتي بأقـدامكم الفتيـة ،

ولا تنسوا أن تبروا أحدكم من أحدكم بركلة تستقر في جنبه تعدمه الحياة، التي يعيش عنفوانها، وبضربة «تجعفه»، كما كان «يجعف» والده الشداد عن ظهر البعير، فيتكّوم على الأرض وتتعجن أعضاؤه فيتحول إلى كرة، رأسه فيها عند قدميه، فيسود السكون بين اللاعبين، ويمسكون أنفاسهم، وكأن بين أنفاسهم ونفسه اتفاقا واتصالا، ويطول الترقب وهو قصير، وتبدأ الحقيقة تصرخ بأنه قد مات، وتوقظ الحقيقة الماثلة «السادر» وتنبه المغالط، وترتخي الأذرعة على الجوانب، وتزوغ العيون، و«تتهدل» الأفواه، ويتلفت القوم إلى صاحب الركلة، صاحب الرجل «المرزبة»، فيجدونه قد تجاوز مرحلة المفاجأة، ودخل مرحلة الاستعداد لما هو آت.

ومن عادة القوم أنه إذا قَتَل شخص آخر دون قصد، أن يدفع الدية التي تحكم بها القبيلة عليه، يخضع هذا لعدة اعتبارات. لنوع الحادثة، وظرفها، والصلة السابقة بين القاتل والمقتول،

وأداة القتل، وشهود العيان، والقرابة والبعد بين الاثنين في الصلة العائلية، وحالة القاتل والمقتول غنى وفقرا، علوّا في المجتمع ودنوّا. فإذا تقررت الدية ودفعت، انتهى الأمر أو كاد، وإذا لم تدفع فعلى القاتل أن يبرح مقر القبيلة. ويذهب إلى أن يجمع الدية ويعود. ومع كل هذا الذي كان يحدث وكثرته لم يكن الشباب - يا بني - يتركون اللعب، ولم تكن الحوادث تقل، وهذه سنة الله في خلقه. فكم من أم فجعت بابن قتيل، وكم من أم وأخت وحبيبة حرمت من ابن تغرّب ليبحث عن دية، وعاد أو لم يعد.

وكان انتقال أحد أفراد القبيلة من مكان قبيلته بهذه الصورة بحثا عن الدية مظهراً من المظاهر المتكررة، وقد ساهم في تداخل القبائل بعضها مع بعض، فهذا الذي ترك القبيلة وأخذ يتنقل قد يدخل في قبيلة أخرى ويتزوج منها، ويكثر أبناؤه فيحصل بينه وبين هذه القبيلة حلف، أو مجاورة. وقد «يثقل» الشخص، وتطيب له الإقامة في مجتمعه



الجديد فلا يعود إلى قبيلته، وأحيانا عندما «يُلْفي» على القبيلة وتستضيفه، لا يجد ما يضيره في ذكر اسمه وقبيلته وسبب غربته عنها ورحلته منها. وأحيانا - خاصة إذا كان هناك دم وثأر - يُبْقِي الضيف اسمه مجهولا، ويقتضي الأدبُ، و «سَلْم» العرب وعاداتهم المضيفَ ألا يسأل، قد يلمّح ليجس النبض، فإذا لم يبيّن الضيف اسمه عرف المضيف أنّ ضيفه لا يريد أن يكشف اسمه، وجزء من إكرام الضيف وأصول الضيافة أن يسايره في مشيئته، «لأن اكرام النفس هواها» أي تركها على ما تهوى.

واسمع هذه القصة فهي تريك تفاصيل هجرة من هذه الهجرات، وما يحدث فيها أحيانا من المفاجآت والمخاطر:

اقتضت حادثة وقعت في أثناء لعب الأطفال من غير قصد، أن يترك شاب قبيلته، ويذهب لجمع دية القتيل الذي تسبب في موته، إذ لم يكن عنده ما يعطيه

وكان ينوي أن يعود لينخرط مرة أخرى في قبيلته . لقد بدأت رحلته من شرق الجزيرة ، حيث كانت قبيلتــه تحظى بشـأن وصيت . وحين وصل إلى بلدة زراعية في وسط نجد ، استهوته الزراعة ، وكان شابا قويا ليس معه غير حصانه وسيفه ، «فتقبّل» إحدى المزارع باتفـاق سنـوي أو موسمي ، على أن يُعطَي صاحبها جزءاً من الثمرة . وجرت العادة أن يجد هو وأمثـاله من المزارعين الطارئين من يقرضهم مبلغا يسددونه عند حصاد الثمرة ، أو جنيها بجزء من المحصول أو الإنتاج .

وفي أحــد الأيام الأول لعمله في هذه المزرعة جاءه خادم حاكم البلدة التي تتبعها هذه المزرعة وأبلغه رسالة من الأمير مقتضاها أن يعطيه علفا لخيله ، فاعتذر بأنه لم يتوافر له إنتـاج بعد ، وبأنه قد استجدى من العلف «لمعاويد» السّواني وجمالها التي تمتح الماء من جيرَانــه . وأشـار إلَى «قتّ» ملقى بجانب

«المنحـاة» تدليـلا على دعواه . فما كان من الخـادم ، استهتـارا واستخفافا واعتمادا على سلطة سيده الغشوم إلا أن أخذ يجمع العلف «الـبرسيم» في «منشـر»[1] كان معه ، تمهيداً لوضعـه وتحميله على ظهر الحمار الذي جاء راكبا عليه ، ولم تُجْدِ محاولات الرجل في ثنيه عن أخـذه ، فاستشاط غضبا ، وكان سيفه معلقـا على إحـدى النخـلات القـريبـة ، وحصـانـه مربـوطـا بها قريبا منه ، فامتشق الحسـام ، وأطاح رأس الخادم ، ووضعه في المنشـر ، وحمّله على ظهر الحمار ، وأرسله في طريقه عائداً ، وركب حصانه وترك المزرعة والمنطقة واتجه غربا .

كان الوقت شتاء ، وقاده سفره إلى أرض مربعة زاهية بالنبت والنوار ، قد انتشرت على أديمها بيوت الشعر مثل انتشار الوشم في يد

(١) المنشـر نسيـج من الصـوف الخشن يحمل به علف الدواب خاصة منه ما يتناثر ولا يمكن حزمه بحبل ، ويوضع في المنشر حفظا له .

الحسناء ، فأخذ طريقه إلى بيت شعر منعزل يوضع عادة لتلقّي الضيوف الطارئين من أمثاله . فنزل وربط حصانه وجلس ولم يكن في الحي في ذلك الوقت إلا عجوز وطفلة ، فأرسلت العجوز الطفلة لترى من الطارق ، فسألته الطفلة عمن يكون ، فأجاب إجابة لم يصرح فيها باسمه لكي لا يعرفه أحد واكتفى بالقول أنه طُوَيْرق يطلب القرى ، وإن اسمه طويرش (تصغير طارش أي مسافر) ، فابتسمت العجوز عندما نقلت الطفلة إليها ما قال ، وأخذت تحدث نفسها «هو طويرش وليس بطويرش» أي هو مسافر ولكن اسمه غير مسافر » .

وتوافد رجال الحي آخر النهار ، بعد أن نال الرجل مايستحقه من إكرام ، بعد أن أخذ من الراحة ماعوضه عن التعب الذي عاناه في سفره . وفي اليوم التالي استأنف الرحلة غربا ، ولكن البرد اشتد ، ونزل المطر



بغزارة مما اضطره للعودة للحي الذي غادره ، فلما أقبل على القوم مرة أخرى تساءلوا من القادم ، فرد بأنه طويرش ، ضيفهم في الليلة البارحة ، وقد أعجبه الاسم الجديد ، وتمسك به ، وبقي عندهم حتى انجلت الغيوم ، وتهيأت له أسباب الرحلة ، فغير وجهته وسافر إلى القصيم ، واستقر فيه ، والتحم بمجتمعه ، وقد اجتذبته الزراعة وحدها في بداية الأمر فأقبل عليها ، ثم أخذ يراوح بينها وبين غيرها من الأعمال فيحطب أحيانا ويزرع أحيانا أخرى ، ولم يلبث أن أصبح هو وأولاده لبنة في ذلك المجتمع ، وأصبح بعض أولاده رؤساء في بلدتهم ، وقليل من أولادهم اليوم يعرفون تفاصيل رحلة جدهم ، واسمه الأصلي الذي لم يعد يذكر إلا في الصكوك القديمة . ولم يفرط هذا الجد باسم قبيلته منذ البداية ، وحرص على تعريف الناس بها ، لأنه بدون ذلك لم يكن

ليستطيع الزواج ممن يطمع في مصاهرتهم. وقد أمن في هذه المنطقة من ملاحقة من يطلب الثأر منه، ووجد من سكان المنطقة من قبيلته سندا وعضدا يضفي عليه الحماية الكافية، وفي هذا المجتمع المتلاطم بالحروب والغارات والسلب والنهب.

لقد أبعدنا - يا بني - كما رأيت عن فنجان القهوة، الصغير في حجمه، الكبير في معناه، وعما تطورت إليه حاله، وعما كان له في الحياة الاجتماعية من قبل من مكانة، وعما جلبه من خير وشر، وعما بقي له بعد أن مرّ اصبع المدنيّة عليه كما مرّ على كثير من الأمور التي كانت سائدة في حياة البادية أو الحاضرة، إن الزمن قد زاد في أهمية بعض هذه الأمور، وقلل من أهمية بعضها. إن مرور الزمن يتبع في العادة نسقا متناميا خطه الله لتنظيم التطور والنمو، ونحن قد نلمح مبكراً معالم هذا النسق، وقد يأتي التطور تدريجيا فلا نلمسه إلا إذا تبلور، على أن قواعد الحضارة والعمران تبقى في كل



الأحوال تحكم سَيْرهُ بطريقة متقنة وخطوات مرتبة .

إن هنـاك كثـيراً مما يمكن أن يقـال عن القهوة ويضاف إلى كل ما سبق أن قلناه عنها . لقد وعدتك ووعد الحرّ دين ، لهذا فإني سوف أروي لك المزيد من القصص والاشعار عنها . ولكن ذلك سيكون في حدود ضيّقة ومختصرة ، إن ما في الكتب من أمثال هذه القصص لا يحصى ، ولا يحتمـل المجـال أن نتوسع في نقلها . إنني سأكتفي بما يحضرني من هذه القصص مراعـاة لقلة صبرك ، وسرعة نفاد ما بقي لك منه ، ولقد اخترت من هذه القصص ما انطوى وما بقي في ذهني منه ، على ميزة الطرافة والمتعة .

ولأبدأ بقصة سبق أن قصصتها عليك في موضع سابق ، ففي اعادتها تذكير وإفادة :

حضرت مجلسـا - يا بني - لرجـل من المسنـين ، وكـان في مجلسه هذا أحد رجال البادية ، المسنين أيضاً ، وكان الضيف يقص قصصا حدثت في زمـان «الجهـل» ، وهو

الزمن الذي خف فيه وزن الدين ، فلم يعد النّاس يعطونه حقه من الرعاية ، وذهب الأمن فلم يعد الناس يهتمون بنظام ، ولم تبق سلطة تمنعهم أو تمنع عنهم ، حتى اقترب الأمر من حكم الغاب ، فكانت الغارات ، وَرَدُّها ، على أشد ما تكون . والتحمت قبيلة هذا الرجل مع قبيلة أخرى ، وحدثت معركة انتهت كالمعتاد بقتلى وجرحى ومنتصرين ومنهزمين . وبدأ المنتصرون يجمعون الغنائم ، ولم تكن كثيرة ، وكان منها ما تخبئوه جيوب الجرحى أو المقتولين . وقادت هذا المتكلم قدماه إلى قتيل في ريعان الشباب ، جميل الطلعة ، متكامل البنيان ، لم يراع السيف بوجهه الكالح هذا الوجه النضير ، فعاث فيه وأورده التراب يتعفر فيه . وأدخل هذا المتكلم يده في جيب القتيل ، فوجد فيها عددا من الصّرر ، وفي كل صرة شيء من مستلزمات الحياة . ولقد وجد صرة بُنٍّ ،



وصرة هيل ، وصرة «شاور» ، قال المتحدث ، فجلست بجانبه أندبه كما تندب الثكلى ابنها ، ونسيت أمام هذا الوجه «الصبوح» ، وأمام توافر مكملات الرجولة في «مخباته» ، ومظاهر الشباب في جسمه أنه من أعدائي ، ومازالت عيني تدمع عندما أتذكره ، ليتني كنت مكانه ، ألا شلّت يمين قاتله .

أرأيت - يا بني - كيف تزرع القيم وتعرّق وتبعد في التربة ، بصرف النظر عن قيمتها في نظرنا اليوم ، أو انسجامها مع أنماط الحياة التي نرتضيها الآن . ولقد توغلت القهوة على سبيل المثال في حياة الناس ، وتشعبت جذورها ، وحملت العدو اللدود في الحياة على أن يصبح صديقا بعد الممات .

وبعض القصص التي تروى في هذا الصدد - يا بني - كما سبق أن أخبرتك ، يصعب على العقل الآن استيعابها وتصديقها ، ومن هذه القصص :

يروى أن إحدى القبائل نصبت خيامها كالمعتـاد في أحد المواقع المختارة ، وكالعادة نُصبت خيمـة الشيـخ على مرتفـع ، بعيدة بعض الشيء عن بقيــة خيـام باقي الحي . جلس الشيـخ في إحـدى الأمسيات خارج الخيمــة مع زوجتـه ، التي أخـذت تعمـل القهوة ، بينما هو متكئ بجانبها ، وكان الجو بديعـا ، والسـماء صافيـة ، والنجـوم تتلألأ والنسيم عليلا ، والهدوء مخيما الا من صهيل حصان قريب يقطعه ، أو عواء ذئب تحمله الـريح من بعيد ، أو نباح كلب يُنبِّه به إلى مرور عابر ، أو ثغاء عنز جاء وقت حلبها أو نطحتهـا أخـرى ، أو «دق نجـر» «صوت هاون» ، يتفنن صاحبه فيه ويهدي به ضالا ، أو يجلب ضيفا ، أو يثير ذكرى ، لقد كانت كل هذه الأمور بمثابة لغات مختلفة وألسنة متباينة ، وكان سكون الليل هو الضحيّة .

وبدأ شبح ضيف بعيد يقترب ، وخلافا لما



جرت به العـادة من ذهـاب الضيف أولا «للشراع» المعد للضيوف، فإن هذا القادم توجه إلى مقر الشيخ مباشرة، فأخرج الشيخ خنجـره من غمـده، ووضعـه على ركبته، وقال لزوجته: «سنرى فإن كان هذا القادم ذا شر فهذا دواؤه» وأشار إلى الخنجر المعد، «وإن كانت أعمته (خرمة) القهوة، فسوف يفطن إلى سوء تصرفه بعد أن يشرب عددا من فناجينها، فصبّي له منها مايروي ظمأه لها».

وصـل الضيف، واتجـه إلى حيث هداه أنفه، اتجه إلى رائحة القهوة، وتحركت اليد الكريمة تصب الفنجان تلو الفنجان، واليد العطشى تتناول وتشرب وتروي جوفا خاليا إلى أن بدأ دبيب القهوة في العروق، وبدأ التشبـع، ومثلما يستيقظ النـائم، أو يطفـو الغـاطس، أو يلج الـداخل، بدأ الضيف ينظر حوله، بتساؤُلٍ صامت، ثم بتساؤل

ناطق ، قال : «المعذرة» وهو ينقل بصره بين الزوج والزوجة ، «أين أنا؟ وكيف جئت إلى هنا؟» ، فقال المضيف : «أنت ضيف فلان ، وقادتك قدماك إلينا لكي نزيل خرمة القهوة التي غطت عينيك ، وجعلت أنفك دليلك ، وقد قادتك قدماك خير قيادة . فأهلا وسهلا بك» .

هل يمكن أن تتصور بعد أن سردت على مسامعك هذه القصة - يا بني - أن «خرمة» القهوة يمكن أن توصل المرء إلى هذه الدرجة من الغيبوبة . على كل حال يمكن أن يكون في هذه القصة بعض المغالاة ، ولكني أعجبت بها وأنا صغير ، ورويتها مراراً ، وها أنا أرويها لك الآن . لقد أصبحت جزءاً من التراث ، فإن اقتنعت بها فاروها ، أما أنا فقد أديت واجبي فوضعتها بين يديك أنت وأبناء جيلك ، فافعلوا بها ما تشاؤون .

والقهوة - يا بني - كما هو معروف لا يدخل فيها في نجد وباديتها السُّكَّر ، وتقدم أحيانا مع التمر ،

الذي يمهد لطعمها المر ، هذا الطعم الذي لم يخالطه سوى الهيل ، أو «المسمار» «القرنفل» ، الذي يحل محل الهيل عند من يفضله عليه من الناس .

يروى أن أحد الناس أخذ «حثل» القهوة بعد أن شرب القوم الدلة ، وكانت «مبهّرة» بالهيل ، ودفنه في التراب ، وأخذ «حثل» دلّة أخرى ، مبهّرة بالقرنفل ، ودفنه أيضا في التراب . وبعد ثلاثة أيام حفر فوجد أن الحثل الذي فيه القرنفل باق كما هو لم يتغيّر فيه شيء ، لا لونه ولا رائحته ، أما حثل القهوة ذات الهيل فقد وجد فيه دوداً .

والقهوة- يا بني- تحلو لبعض الناس على الريق ، يفتتحون بها نهارهم ، ويخفف مرارتها عندهم ما يؤخذ معها من تمر ، وقد جَعَلَتْها مرارتها أحيانا تسمى القهوة المرة تمييزا لها عن الشاهي الحلو . لقد اعتاد الناس الآن مرارتها وألفوها وتطلعوا إليها ورغبوا فيها ، ولم تعد تزعجهم هذه المرارة كما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة .



أما القهوة السائدة في بعض المجتمعات العربية فهي المسماة بالقهوة التركية ، ويختلف صنع هذه عن صنع القهوة العربية ، ولها خرمة خاصة بها . وهي تقدم أحيانا مرة مرارة كاملة ، أو يكون بها أحيانا شيء من الحلاوة القليلة ، والتعبير السائد الذي يطلق على هذه القهوة هو قهوة «على الريحة» ، وهناك نوع ثالث هو مايكون السكر فيه كثيراً ، ويعبر عنه بقولهم : «سكر زيادة» .

وفي الغالب يُسأل من سيشرب القهوة عن رغبته ، ومن ثم يؤتَى له بمطلوبه . وهذه القهوة أقوى تأثيراً في التنبيه من القهوة العربية ، ولعل السبب يرجع إلى طريقة تحميصها وطحنها ، مما يجعل خواصها تذوب في الماء ، رغم قصر وقت طبخها إذا ماقورنت بالوقت الذي تمضيه الدلّة العربية فوق النار .

وطريقة عمل هذه القهوة المعتادة هي كطريقة القهوة العربية تقريبا في أنها تبدأ بالتحميص ثم تسحق جيدا ، ويكون لها وعاء يسمى «الكنكة»



يسع فنجانا واحدا مملوءاً أو فنجانين لا تزيد ، ولهذه القهوة وجه من المفروض أن يغطِّي سطح الفنجان وقد تولّد هذا الوجه من زبد الماء الحار عندما توضع فيـه القهـوة ، ولا مفـر من تقسيم وجـه القهوة في « الكنكة الواحدة » على الفنجانين ، إذ يصعب أن يختص كل منها بوجه كامل ، إن عمل هذه القهوة يسير لا عسر فيه :

ان المـاء يوضـع أولا في « الكنكـة » ، فإن كان المطلوب أن تكون حلوة ، يوضع المقدار المطلوب من السكر مع الماء رأسا ويُحَلّ ويحرك فيه ، وقبل أن يغلي الماء يوضع المقدار المطلوب من البن ، فإذا بدأ الـزبـد يظهـر على سطح الكنكـة ، ويـرتفـع من الغليان ، يبعد الوعاء عن النار ، وبعد ثوان يسكب بطريقة بارعة في الفنجان ، فيمتلئ الفنجان وفوقه الـــوجـــه المشرّف لمن عمـل القهـوة . وأصحـاب « الكـار » ، الفنـانون في شرب القهوة يميزون بين صنع وصنع ، حتى لو كان الفرق طفيفا .

هذا - يا بني - ما يجرى في المناسبات المعتادة التي

يطلب فيها من الضيف إبداء الرغبة فيما يفضله من أنواع القهوة، ولكن هناك مناسبات لا يسأل الضيف فيها عن القهوة، ولا يؤخذ رأيه فيها، وهي تقدم في هذه المناسبات مرة ويتناول هذه القهوة المرة كل الزائرين وذلك في أيام العزاء مثلا، ولو قدم أحد القهوة حلوة في مثل هذه المناسبة لكان مثار استغراب وربما عتاب. أما في المناسبات المفرحة فيكون طعم القهوة تفاؤلا حلوا.

وفي بعض البلدان العربية «يقرؤون الفنجان» أي فنجان القهوة، وهذا عمل لا صلة له بالطعم ولا الكيف والحرمة، وإنما بمستقبل الشارب الذي لا يعلمه إلا الله- سبحانه وتعالى- أو بماضيه ولكن بعض المنحرفين من الأذكياء يكسب من هذا العمل، وقد يكون الدافع إليه إيمان المقروء فنجانه بهذا الأمر، وهذا بالطبع يدل على غباء متناه، وقد يكون الدافع التسلية والاختبار. وتجرى قراءة الفنجان بأن يقلب بعد أن يُنتهَى من شربه، ولا يبقى في قاعه إلا «الحثل»، فيتسرب جزء من

الحثل سائلا، فيعمل في أثناء تسربه أخاديد، ومنعرجات، توحي للقارئ ببعض الأفكار، فالمسرب الطويل يوحي لقارئ الكف أن يقول إن أمام صاحب الفنجان «سكة سفر» طويلة، والمسرب المعوج الذي أخذ منحنيات مختلفة يوحي له بأن يقول إن عند صاحب الفنجان مشاكل، وكثرة بقع القهوة «المنعزل» بعضها عن بعض توحي بالثروة التي تهبط على المقروء له.

يستنطق قارئ الفنجان الخطوط والنقط، وتجمعات القهوة كما يحلو له، وحسب حال شارب القهوة، والقارئ في العادة ذكي لا يقول لمن يقرأ له فنجانه ما يمكن أن يؤخذ عليه مستقبلا، أو ما قد يضعه في موضع ريبة، وهو لن يوحي له بوقوع ما قد يتنافي كلية مع ما يعرفه بالتأكيد. ولا يجعله ييأس فيتصرف مثل تصرف الذي استنطق الازلام، فأوحت له بما لم يكن يتفق مع خطته في أن يسير ليأخذ بثأر أبيه، فقد نهته الازلام باتجاهها عن المسير، فما كان منه إلا أن كسرها، وقال: «والله لو

كان أبوك المقتول لما نهيتني» . لقد تبينت الحقيقة عند من استنطق الازلام في لحظة الاحساس الصادق ، تبينت وظهر أنه لم يكن لديه إيمان بما تخيله عندها .

إن ذكاء قارئي الفنجان يأخذ مناحي مختلفة ، وليس ماذكرنا هو كل مايفعلونه ، فهم يعمدون أيضا إلى العموميات فيستفيدون منها ، فليس هناك شخص في الوجود ليس عنده مشاكل ، وليس هناك من ليس له أعداء ، وليس هناك من لا يؤنسه أن يسمع بأن ثروة سوف تأتيه ، حتى لو كان «مليارديرا» . وإذا كانت سنه تسمح ، فلابد أن تكون له صلات عاطفية ، ولابد أن الاتصال بينه وبين من يحب قائم ، أو منقطع ، وحينئذ ترى القارئ يقول : «إن الجانب العاطفي عندك حافل وهو يشغل فكرك أغلب الوقت» ، وهذا كلام معتاد لا يعني شيئاً ولا يلزم القارئ بشيء . إن مايقوله القارئ في العادة لا يعدو أن يكون مجرد كلمات ترصّ، وأفكار باهتة تطرح ، ومعان يفهمها كل سامع بصورة تختلف عما يفهمها بها سامع آخر .



والتنبؤ قديم في حياة البشر ، وهو من لوازم ضعف الإنسان . وعصر الجاهلية كان مليئا بهذا ، والمتنبئون كثيرون يُقصدون وتُشد الرحال إليهم ، واجاباتهم مسجوعة إمعانا في التأثير . ولكنهم يدركون أنهم لا يستطيعون أن يعتمدوا في معاشهم على مجرد فرص تسنح عندما يأتي محتاج يسألهم عما هو مغيّب عنه ، لقلة هذه الفرص بسبب قلة من يؤمن بهذا التنبؤ . لذلك نراهم انطلاقا من ذكائهم وتجربتهم وخبرتهم ينصبون أنفسهم حكاما بين المتخاصمين . وقد تصدق نبوءتهم ، لا لأنهم يعلمون بالمغيّب ولكن لأن لهم فراسة مكنتهم من ربط الأسباب بالمسببات ، فخمنوا النتيجة قياسا على السبب . لذلك يصبح نجاحهم في بعض الحالات ساترا لإخفاقهم في حالات أخرى .

والتأثير الذي يلجأ إليه قارئ الفنجان يعمل عمل السحر في من أمامه ، وهو يستمد أغلب عناصره ممن يقرأ له الفنجان أمامه ، سواء عن طريق لباسه ، أو تصرفه ، أو بعض عباراته في إجاباته .

ويبــدو أن قارئ الفنجـان ، مثـل سلفـه عرّاف الجاهلية ، اكتشف أثر السجع على المستمع ، فلجأ إليه ، يستقي من نهره ، ويغرف من بحره . هناك مقدمات يبدأ بها قراء الفنجان كلهم ، ثم يستقل كل منهم بطريقتـه الخـاصة ، ولكن السجع يبقى قاسما مشتركا لا يهملونه .

وعندما تفكر – يا بني – في أسباب ربط «حثل» القهوة بقراءة البخت ، لا تجد سببا واضحا إلا أن تفسره بأن فنجـان قهوة واحد ، يشرب في دقائق ، لا يعـطي الـوقت الكـافي للتمتع بالجلسة ، فزيادة الوقت بقراءة الفنجان يعطي الجلسة طولا يتمتع فيه الأصدقاء في جلستهم بعضهم مع بعض .

وفي مكة في زمن مضى – يا بني – لم تكن القهوة مفضلة على الشاي ، بل كان محبو الشاي أكثر من محبّي القهـوة ، بل لا تكاد في «القهاوي» المفتوحة للعامة تسمع طلب القهوة ، والذي لم يكن يفارق الأفواه هو طلب الشاي ، لذلك لا بد أن تعجب من تسميتها القهوة ، مع أن القهوة ليست أكثر ما يطلب



فيــهــا . وكــان حقهــا أن تسمى «المشهــاة» أو «الشاهية» ، ويبدو لي أن السبب قد يكمن في أن المقـاهي بدأت بتقـديم القهـوة ، ثم طغى عليهـا الشـاهي ، لكثرة زبائنه من الحجاج الوافدين من الشرق ، الــذين كانــوا يجلبـونـه معهم بكثـرة ، ويكثرون أيضا من طلبه ، هذا بالاضافة إلى قصر الوقت الذي يُقضى عادة في شرب القهوة التركية ، وقلة التسلية الحاصلة من شربها ، بخلاف الشاي .

لم يبق - يابني - في ذهني الآن من أحاديث عن القهوة إلا ماوعدتك به من أشعار وقصص ، وهذه سوف أؤجلهـا إلى أن أعـطي الشاي بعض حقه ، حتى لا يحتـج علينـا محبـوه وشـاربـوه الأفـاضل ، وأسميهم أفاضل لأنك واحد منهم ، تفاؤلا بهذه الصفة .

يختلف الشـاي عن القهـوة في أن وقت شربـه يمكن أن يطول مما يتيـح للنـاس فرصـة التسليـة بالأحـاديث ، والسمـر بـالحكايات في أثناء شربه ، ومن خلال التمتـع به وبــرائحتـه . ويحلو شرب

الشـاي ، ويـطيب مزاج الشاربين كلما طالت فترة الغيـاب عنـه ، أو عندما يحل وقت شربه المعتاد ، ولا بد أنك- يا بني- قد لاحظت أنني أحيانا أقول : «شاهي» ، وأحيـانـا أقـول : «شاي» لأن الكتّاب يكتبـونها «شايـا» ، ولكن أكثـر النـاس ينـطقونها «شاهي» . ومـا دام الأمـر كذلك فلنقل هذه مرة وتلك أخرى ، حتى لا نغضب أحداً .

وموطن الشاهي الأصلي هو بلدان جنوب شرقي آسيا كما هو معروف ولعلّه جاء إلى الجزيرة مع أبناء تلك البلدان الذين نزحوا إليها ، أو جاءوا للحج ، ولا يستبعد أيضا أن يكون سكان الجزيرة ، وهم لم يكونوا ينقطعون عن الذهاب في تجارتهم إلى الهند ، قد جلبوه معهم . ولعل نقله وانتشاره جاء بسبب كونـه بضـاعـة قابلة للربح الكبير ، ولأن الأجيال الماضية لم تكن تعدّه من الكماليات . وقد مضى زمن طويـل على دخوله إلى الجزيرة . وكان الفلاح من الجيل السابق يحرص على شربه أكثر من حرصه على أكل قطعة من اللحم يقيم بها أوده .



ويقال إن الشاهي لم يكن يشرب في بداية الأمر في بلاده الصين، ولم يكن فيها إلا شجرة من الأشجار الجميلة. وذات يوم أرسلت حبيبة إلى حبيبها غصنا منه، رمزا عاطفيا يذكره بها، فركزه في إناء به ماء، ولما رأى أنه بدأ يذبل أدخله كاملا في الماء، فَنَقَعَ، فشرب هذا الماء، فاكتشف أنه منعش، وأن له ريحا ذكيا، فكرر ما فعل، فانتشر بسبب ذلك. والله أعلم بصحة هذه القصة الطريفة.

ويقال إن بعض الناس كان يستعمل السّكّر لتحلية الشاي ويضعهما في الماء معا، ويغليهما. ويقال إن بعضهم كان يحلّيه بالدبس (عسل التمر)، والطريقة الأولى هي التي استمرت حتى الآن.

والطريقة المعتادة في صنع الشاي هي وضعه في الماء بعد أن يغلي، وتقريبه قليلا من النار حتى «يخدر»، ثم يوضع السكر بعد ذلك بالمقدار الذي يراه صانعه. أما الآن، وبعد الوعي الصحي لامراض السّكّر، والحرص على عدم زيادة الوزن،

فقد أصبح الشاي يقدم بدون سكّر، ويقدّم السكّر منفصلا لمن يرغبه، فيضيفه بالمقدار الذي يراه، وهذا تطور جديد أملاه تطور المجتمع. وقد ترى من يحضر إبريقين، أحدهما قد حُليّ بالسكر، والآخر «خامر» لم يحلّ بالسكر. وقد يقدم في الصينية الواحدة صفّان من الفناجين، صفّ محلًّى، وصف لم يُحَلَّ، ويُنَبِّه مقدمه على المحلّى منهما وغير المحلى.

وهناك مزاحم آخر للشاي بدأ ينتشر الآن، وهو النعناع، وكثير من الناس يفضله، ويرى فيه بديلا مناسبا. وطعمه المنعش، ورائحته النفّاذة ترجحه عند بعض الناس، ومن ميزاته الكبرى أن مادته وطنية، بل إنها في أغلب الأحيان بيتيه، تقطف أوراقه ندية «طازجة» من حديقة البيت، ويختلف عن الشاهي في أنه لا ضرر من غليه، بل إن بعض الناس يفضله مغليّا «للذعة» التي يجدها فيه. وهناك ميزة أخرى هي أنه ليس منبها وإنما هو أقرب إلى التهدئة منه إلى التنبيه، وبعض الناس لا يرى



هذا ميزة فيه .

ولا أنسى أن أشير هنا ، يا بنيّ ، إلى أن الشاي هو ورق شجرة خاصة ، وهو في الأصل أخضر ، ولكنه مثل القهوة يحمص ، ويصبح الشاي المعتاد الذي نشربه دائما . ولكنه أحيانا يأتي أخضر ، ويسمى الشاي الأخضر ، وله أنصار ، وينصح بشرب الشاي الأخضر بعد الأكلات الدسمة لفاعليته في هضمها ، وقد يكون هذا الأمر وَهْمًا جرى به العرف ، وقد يكون صحيحا ، ويحتاج البت في الأمر إلى تحليله ، والوصول إلى نتيجة علمية عنه .

والشاي مع الحليب شراب مرغوب فيه في بعض الأحيان ، وعند بعض الناس ، خاصة في الصباح ، ولعل هذا من تأثير الإنجليز أيام حكمهم للهند ، فالإنجليز يكادون لا يشربون الشّاي إلا بالحليب . وفي أثناء الحرب ، وعندما شحّ السكّر ، تعودوا على شربه بدون السكّر ، فساعد الحليب على «قمع» حدَّة مرارته ، ثم تعوّدوا على ذلك ، وأصبح قليل منهم الآن يستعمل السّكّر ، لأنه قد اعتاد على تركه

في أيـام الحرب العالمية الثانية ، ولئلا يضيف أيضاً وزناً إلى وزنه بسبب الطاقات الحرارية الموجودة في السّكّـر . والـطاقـات الحـراريـة الزائدة ، يا بنيّ ، أصبحت هذه الأيام «بعبع» الناس ، أما في الماضي فلم يكـونـوا يعـرفونها ، لأنها لم تكن تبرز لهم أو تهدّدهم . كانـوا يأكلون قليـلا ، وكانت الوجبات متباعدة ، والأصناف قليلة ، وكانت الحركة كثيرة ، فكان الجسم يحرق الطاقة أولا بأول ، فلا يبقى منها مترسّبا في الجسم شيء ، وعلى هذا لا يسمن النّاس ، ولا يشكـون من «الكـوليسـترول» الـدهن في الأوردة ، ولا من الأملاح . وقد تكون شكواهم من سوء التغذية ، أو من جهلهم بأصولها أحيانا .

أمـا اليـوم فالأمـر مختلف- يا بني- فأنت وأنـا وكثيرون نعاني من انفتاح الشهية ، وانطلاقها دون معيـار أو ميـزان . الـوجبـة «تطرد» الـوجبـة ، والأصناف متعددة ومغرية ، والعين ترى ، والأنف يشم ، والمعـدة على أثـرهمـا تتحـرك ، وتبـدأ «عصـافيرها» تزقزق وتطلب الأكل ، وتزيد منه ،



وتسارع إلى أكل الوجبة قبل أن تهضم سابقتها، وهناك الأصناف التي تؤكل مقليّة بالسمن أو الزيت، والحلويات المغرية، وأنواع الرزّ الشهية. وأنت في حقيقة الأمر لا ترى أكلا لذيذاً إلا وتراه يسمّن، وكأن هناك قاعدة طردية تحكم هذا الباب.

وهناك، يا بنيّ، الأكل بين الوجبات، وشرب الشاي المتعدد المرات، وقد يغلب السّكّر على هذا الشاي، ويطغَى على طعمه. ويردد محبّوه مداعبة «المؤمنون حلويون». والراحة والفراغ يذكر بالشاي، و «بفرشة الشاي»، من كعكة أو «ساندويش». وهكذا يرتفع الوزن، وتبدأ الشكوى، وينسى الشاكون أنّ الاغراء كان أقوى من مقاومتهم.

وتأتي بعد ذلك - يا بني - محاولة تخفيف الوزن، فالثياب ضاقت، والركب شكَت، و «الكوليسترول» ضرب جرس الانذار، والأملاح بدأت تطل برأسها، ولا بد من اتخاذ خطوة، فيبدأ الجوع المتعمدّ، واختصار الوجبات، وتصغيرها وانتقاء



مالا يسمّن، ويمـر «المخسّس» بفـترة عصيبـة يستعمـل فيهـا كل مالديـه من مخزون العـزيمـة والإرادة، ويستمر هذا المنوال شهرا أو شهرين، ثم لا تلبث النتيجة الحسنة أن تتبيّن وتبتسم، ويبدأ الميزان يبشر، إلا أن صاحبنا لم يعد يطيق الصبر على جرّ العنان وشدّ الرسن. وفي أسبوع واحد يخرب ما أصلح، وينقض ما غزل، ويهـدم ما بَنَى، يتم ذلك بسرعة فائقة، وشتان بين طلوع ونزول في هذا المجال.

نعـود للشـاي- يا بنيّ- لنقـول إنه يكاد يكون العنصر الأول في النزهات البرية، ولعل ما يعطيه ميـزة إضـافيـة في الـبريـة أنـه يغلى غالبا على نار الحطب، وهي عند أصحاب «الخرمة» تختلف عن نار الغاز.

وهـكـذا كما رأيت- يا بنيّ- أن الشـاي كان ولا يزال يحتـل في حياة الناس مكانة لا يستهان بها وذلك على الرغم من أن فائدته محدودة، وأن دوره مقصور على الإنعاش أو التنبيه والإدرار، وتبادل

شربه في أصفى الأوقات .

والناس - يا بنيّ - يدخل على حياتهم في معيشتهم أمور تستجد لم تكن معروفة لهم وذلك بسبب التطور وزيادة الاختلاط ، وسهولة الاتصال الذي تقدمت وسائله ، وقد تصبح هذه الأمور ملحّة أو مفيدة . ولكن كانوا مستغنين عنها قبل أن يعرفوها . قد يكون التطور أحيانا عن طريق إتقان ما كانوا يعرفونه من قبل ، خاصة في أمور الطبخ وأنواع الشراب . ومكة شرفها الله كانت في الماضي ، ولا تزال ملتقى العناصر المتنوعة من البشر ، باختلاف طباعهم وعاداتهم ، ولهذا يتوافر فيها من أنواع الأكل ما لا يكاد يوجد في بلد واحد ، لذا أنت لا تملّ الأكل فيها من كثرة أصنافه وتعددها ، ومناسبة هذه الأنواع للظروف المختلفة . فالزيجات وحفلاتها لها ما يناسبها من الطعام ، وحفلات الختان كذلك . وأكل الشتاء قد يختلف عن أكل الصيف ، ولا تفاجأ ، إذا «اصطكت» السماء بالغيوم ، وبدأ المطر ينزل ، عندما تسمع من يقول : «اليوم يوم



المعـدوس» فالعدس تعورف على أنه يناسب هذا الجو. ويحسن الداعي صنعا في الصيف إذا دعا قوما بالليـل، فقـدم لهم «السليق». أمـا «السّـلات» و«النّـدي» والـرز «البخـاري» فلها أوقاتها. هذا قليـل من كثير، وانك لتعجب كيف تجمعت كل هذه الأنواع.

والغـــريب- يابنّي- أن الحيـوانـات تبقى على فطرتها فتلزم طعامها الذي اعتادته، ولا تفضل عليه غيره إلا إذا لم يتوافر. ولا عبرة بما يقال في القصص الخرافية، اسمع هذه القصة التي تكشف لك كيف يستـجـلب فعـــل الحيــوان، إذا خرج عن هذه القاعدة، الضحك:

إلتقى كركي وثعلب، فدعـــا كل منهـما الثاني إلى الغداء، وعندما جاء الكركي إلى مقر الثعلب الذي يعرف عادة بمكره، قاده هذا إلى صخـرة، وكـان قد أعـدّ «شربة» حســاء للغـــداء، فصّب «الشربـــة» على الصخرة، وأخذ يلعق من أطرافها حتى أتَى



عليها كلها ، ولم يستطع الكركي الذي ليس له لسان أن ينال شيئاً منها . لأن منقاره الطويل لا يسعفه بتناول شيء منها .

وفي اليوم التالي ، وحسب الاتفاق ، جاء الثعلب إلى مقر الكركي ، وكان هذا قد أعدّ لوزًا في قنينة ، فصار الكركي يدخل منقاره الطويل ، الذي كالملقاط ، ويأكل ، ولم يستطع الثعلب أن يدخل فمه ، وعاد بخفي حنين ، وهكذا كال له الكركي بمكياله نفسه .

ولو كانا من الناس لاحتالا على هذه المعضلة ، وقد يجدا فيها من اللذّة ما يجعل كل واحد منهما يتبنى هذه الأكلة الجديدة بعد أن يوجد لها الأداة اللازمة للتغلب على طبيعتها التي تخالف طبيعته .

وهناك - يا بنيّ - حيوانات شاذة وقد يكون سبب شذوذها هو في تعويد الإنسان لها أكل ما لم تعتد على أكله .

ومما يروى أنه كان في مدينة الرياض عائلة تقتني غزالا وقد اقتنته هذه العائلة وهو رضيع ، وقد علموه شرب الشاي ، فكان يسابقهم في شربه ، ولا يكاد يروي ظمأه من «إبريق» كامل . وكان يشرب فنجانه ، ثم يأتي إليهم ينازعهم فناجينهم ، فكانوا يجدون صعوبة في دفعه .

ولم تكن هذه المضايقة تزعجهم ، وقد تعود الغزال من جانبه أن يُعطَى «حثل» الشاهي ، فكان يتطلع إليه بشوق متناه ، ويعدها جائزة مثلى ينتظر منحه إياها . وربما أوحت له طبيعته أن ما يأكله هو ورق نبات ، وأنه لا يختلف عما يأكله عادة من الطبيعة . وكان للخادم غرفة في آخر الحديقة ، ومن عادته عصر كل يوم أن يشرب الشاهي خارج غرفته ، وجاء الغزال في أحد الأيام ، ورأى إبريق الشاهي ، فدفع الغطاء ، وأدخل فَمَهُ في الإبريق ، وشرب الشاهي ، وتناول



«الحثـل» وبعد أن انتهى، وأراد أن يخرج رأسـه، لم يستـطع، لأنـه من شدة ولعه، واستـطعـامـه لشرابـه المفضل حشر الرأس حشراً، ولما تبين له أنه لا يستطيع أن يخرج رأسه أرعبه الظلام الذي خيمّ أمام عينيه، فأخـذ يدور على غير هدى، وصـار رأسه يضرب مايقابله من جدار أو عمود نور في الحديقة، وأصيب برعب شديد وأخذ يقفز دون هدى، وجلب انتباه أصحاب البيت، الـذيـن جاءوا يركـضـون وهـم بين ألم وضحـك، ألم لحالته، وضحك من المأزق الذي أوقع نفسه فيه.

ولم يستـطيعـوا إخراج رأسه إلا بعد أن شذبـوا الإبريق شذباً، وهم في عراك معه لمحـاولـة تهدئتـه. وقفز الغزال قفزة رائعة عندما تخلص من هذا المأزق. ومع صعوبة ماحدث للغـزال فإنــه لم يقلع عن شرب الشــاهي ولا عن محاولــة امتصـاص مافي



الأباريق ، فلقد زاد نهمه إلى شرب الشاهي ، وأمـا تعليمه هذا الشراب فكان من البداية أمراً مدهشاً .

وفي النهاية أود أن أفي لك - يا بنيّ - بما وعدت به من عودة لحديث القهوة ، وما قيل فيها من أشعار ، وما مرّ بها وبصانعها وشاربها من محن ، وهي أمور تدعـو اليـوم إلى الـدهشة والاستغراب ، لقد غيّر مرور الزمن نظرة الناس إلى القهوة ، فقبلوها بعد أن رفضـوهـا ، ولم يكن مرور الـزمن وحده ليغير نظرتهم إليهـا ، بل ساهم معـه في هذا التغيـير اكتشـاف حقيقتهـا بعد أن هدأت العاصفة ، التي حجبت بغبارها ما لا يعرفه الناس عنها ، ويفحصونه ويصلون إلى عمقه من شؤونها ، ولقد جاء - يا بنيّ - تغيـير الاتجـاه نحـوها حادا ، فبعد أن كانت تقام الحـرب على القهـوة ومتعـاطيهـا ، صارت رمـز الضيافة ، ودليل الإكرام والتبجيل .



يقول الجزيري، في حوادث عام ١٩٦٩ هـ[١] :

«في غرة شعبان المكرم، ورد حكم شريف على يد شاويش من باب السلطان يقضي بمنع المنكرات والمسكرات والمحرمات . . . ومنع استعمال القهوة، والتجاهر بشربها، وهدم كوانينها، وكسر أوانيها، وردع باعتها وذويها، والتشديد في بيعها، ومنعها إلى الغاية، والتحريض على ذلك إلى النهاية، وركب لذلك (سوباشاه) القاهرة، وصاحبنا قراكر، أحد أمراء الجاويشة بالديوان الشريف، ومعه طائفة من العسكر يمشو (كذا) بركابه، لمنع الباعة، والتجسس على من عنده من القهوة التي أحلّها الشارع، إذ هي داخلة في عموم قوله تعالى : ﴿قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا

---

(١) هذا التاريخ يعني أن القهوة كانت موجودة في الجزيرة العربية في هذا الوقت.

أو لحم خنزير . . . ﴾ الآية (الأنعام : ١٤٥) فتقرر بذلك أن أصل كل مطعوم من نبات وغيره الحل ، إلا ما استثناه الشارع بالنص ، أو أدى إلى ضرر في بدن أو عقل . . .

وكان العس على الفحص ، وبيوتها ، وباعاتها ، شديداً جداً . وضربوا ، وأشهروا ، وهدموا البيوت ، وكسروا أوانيها المحترمة الطاهرة التي هي مال لرجل مسلم ، يحصل بها وبثمنها الانتفاع[1] .

ما جاء في هذا النص يدل على أن السلطة - ولا بد أن لديها فتوى - تقاوم القهوة ، وتحاول أن تحد من انتشارها ، وتشدِّدُ في ذلك ، في حين كان الجزيري ، وهو طالب علم يحللها ، بل لقد ذهب إلى حد تأليف كتاب في ذلك ، قال الجزيري :

«وقد ألفت في حلها (القهوة) مؤلفاً في بابه ، وسميته بـ «عمدة الصّفوة في حلّ

---

(١) الدرر الفرائد ١٠١٩/٢ .

القهوة» ، وبينت فيه النص بالحل الصريح . . . »[1] .

وفي ذلك الزمن كانت مثل هذه الكتب تحل محل الصحف والمجلات ، معالجةً الأمور التي تطرأ في المجتمع ويختلف عليها الناس ، فيدلي كل فريق برأيه ، ويبسطه مع أدلة في كتاب قد يصغر أو يكبر ، تبعا لما يقتضيه الأمر ، وحسب توفر المعلومات للكاتب ، وتبعا لمقدرته على البسط والبيان . ولقد خلف لنا أصحاب مثل هذه الكتب حصيلة غنية أبانت ماكان لدى الناس أنذاك من هموم ومشاكل ، وماكان يدور في مجتمعاتهم من نقاش ، وأخذ ورد ، وربما كان عنيفا في بعض الأحيان .

أما ما قيل في القهوة من الشعر فهو كثير ، وللجزيري قصيدة طويلة فيها مطلعها :

(١) الدرر الفرائد ١٠٢٢/١ ، ٢٩/١ .

أضواء أنس بدا يهدى لذي كرم
أم نار قهوة قشر في دجا الظلم[1]

ويدل نصه على قهوة القشر ، أو قشر القهوة ، على ماكان يشرب من عناصرها في زمانهم قبل أن يصبح لبها هو المقصود بالشراب عند عامة الناس .

وللشيخ البكرى الصديقي :

شربنا قهوة من قشر بنّ
تعين على العبادة للعباد
حكت في كفّ أهل اللطف صرفا
زبادا ذائبا وسط الزبادى[2]

ويقول مامية الرومي في القهوة :

أنا المعشوقة السمرا
وأُجلى في الفناجين

---

(١) الدرر الفرائد ١٠٢٢/٢ .

(٢) الكشكول ٣٨/١ .



وعــود الهــــند لــي عطـــــر
وذكــري شــاع فــي العـــين[1]

وقيل فيها أيضاً :

يقــولون لــي قهــوة البن هــل
تبــــاح وتــؤمـــن آفـــاتهـا
فقـــلت نعـــم هـــي مـأمـونـة
وما الصعب إلا مضافاتها[2]

وبهذا ينتهي الجزء الخامس من كتاب «أي بنّي»
وبه تختتم السلسلة من هذا الكتاب
والحمد لله ربّ العالمين

---

(١) الكشكول ١/ ٣٠٠ .
(٢) الكشكول ١/ ٥١-٥٢ .



الفهـــارس



(١)

فهـرس المواضيـع


أبجد



(٢)
فهـرس الاعـلام

أعلام









(٣)
فهـرس الأمـاكـن







(٤)
فهـرس المراجع



١ - *أخبار الظراف والمتماجنين*
للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي
تحقيق : عبد الأمير مهنّا
دار الفكر - بيروت
الطبعة الأولى ١٩٩٠م

٢ - *أخبار القضاة*
لوكيع محمد بن خلف بن حيان
عالم الكتب - بيروت

٣ - *بهجة المَجالس وأنس المُجالس وشحذ الذهن والهاجس*
للإمام أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي
تحقيق : محمد مرسي الخولي
دار الكتب العلمية - بيروت ، لبنان

٤ - *البيان والتبيين*
لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيق : عبد السلام محمد هارون
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - الطبعة الأولى

٥ - *تاريخ قضاة الأندلس*
(كتاب المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)
لأبي الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي الأندلسي
ذخائر التراث العربي - المكتب التجاري للطباعة والنشر - بيروت

٦ - *ثمرات الأوراق*
لتقي الدين أبي بكر بن علي بن محمد بن حجة الحموي
صححه وعلق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم
الناشر : مكتبة الخانجي ١٩٧١م - الطبعة الأولى

٧ - *الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة*
لعبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن إبراهيم الانصاري الجزيري الحنبلي
أعده للنشر الشيخ حمد الجاسر - الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م
من منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر - الرياض

٨ - *رسالة مع القضاة*
للشيخ سليمان بن محمد بن عبد الله الحميضي
نشر الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري
إدارة إحياء التراث الإسلامي - قطر ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م

٩ - *كتاب العقد الفريد*
لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي
شرح : أحمد أمين ، أحمد الزين ، إبراهيم الأبياري
الطبعة الثانية ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦

١٠ - *عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرئاسة*
لأبي الحسن علي بن عبد الرحمن بن هذيل
دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ١٤٠١هـ/ ١٩٨١

١١ - *القرآن الكريم*

١٢ - *قضاة قرطبة*
لأبي عبد الله محمد بن الحارث الخشني
تحقيق : إبراهيم الأبياري
دار الكتاب المصري - الطبعة الثانية ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م

١٣ - *قوانين الوزارة*
للامام أبي الحسن الماوردي
تحقيق : الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد والدكتور محمد سليمان داوود
مؤسسة شباب الجامعة - الاسكندرية ١٤١١هـ/ ١٩٩١م

١٤ - *الكشكول*
لبهاء الدين العاملي
تحقيق : الطاهر أحمد الزاوي
دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه

١٥ - *المحاسن والمساوىء*
للشيخ إبراهيم بن محمد البيهقي
دار صادر - بيروت - ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م

١٦ - *محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء*
للراغب الاصبهاني
اختصار : إبراهيم زيدان
دار الآثار - بيروت



١٧- *مجالس ثعلب*
لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب
شرح وتحقيق : عبد السلام محمد هارون
دار المعارف - الطبعة الخامسة

١٨- *المستطرف في كل فن مستظرف*
لشهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي
شرح وتحقيق : الدكتور مفيد محمد قميحة
دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان
الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م

١٩- *معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)*
أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله شهاب الدين الحموي
دار إحياء التراث - بيروت - لبنان

٢٠- *المنتقى من أخبار الأصمعي*
للقاضي أبي محمد عبد الله بن أحمد الربعي
إنتقاء الحافظ ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي
تحقيق : محمد مطيع الحافظ
الطبعة الأولى ١٩٨٧م - دار طلاس للدراسات

٢١- *كتاب النصيحة المعروف باسم «قابوسنامة»*
تأليف الأمير عنصر المعالي كيكاوس بن اسكندر بن قابوس بن وسمكير بن زيّار
تعريب : محمد صادق نشأت ودكتور أمين عبد المجيد بدوي
الطبعة الأولى ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م
مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة

٢٢- *نوادر القصص عند العرب*
إعداد فؤاد قميحة
سلسلة النوادر والظراف
دار الفكر اللبناني - بيروت - الطبعة الأولى

٢٣- *نهاية الأرب في فنون الأدب*
لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري
مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م